أبـــو الأنبيـــاء
ابـــراهِيـــم

دراسة مِن القرآن الكريم

بقلم الأستاذ الدكتور
منيع عبد الحليم محمود
عميد كلية أصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر

نشـر وتـوزيـع
مكتبـة الإيمان القاهـرة
٤ ش أحمد سوكارنو العجوزة
ت ٣٤٥٢٣٠٢

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

«إلى سيدى ومولاى رسول الله ﷺ». الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادى إلى صراط الله المستقيم. أهدى هذا الكتاب.

د. منيع عبد الحليم محمود

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين: سيدنا محمد سيد الخلق أجمعين.

وبعد:

إن حياة أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام كانت دائماً معرضاً لكثير من دراسات المستشرقين ومؤرخى الأديان، معتمدين فى ذلك على أصول تاريخية قد يكون أصابها بعض التحريف، أو على فلسفة بعض المواقف لسيدنا إبراهيم عليه السلام، بطريقة تؤدى، فى بعض الأحيان، إلى الأنحراف بهذه الشخصية عن النطاق الذى رسمه لها الله سبحانه وتعالى.

ولكن القرآن الكريم قد رسم لنا هذه الشخصية، وبين أبعادها، ووضع لنا المنهج المثالى لدراستها بما يدحض كثير من الشبهات حولها، ويوضح لنا مقدار عظمتها.

لقد اخترنا فى هذه الدراسة توضيح الملامح الأساسية فى حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام من القرآن الكريم، مقدمين بذلك النموذج الإسلامى لدراسة حياة الأنبياء.

ولعلنا بهذه الدراسة نكون قد وفينا هذه الشخصية العظيمة بعض ماتستحقه من التقدير.

والله ولى التوفيق.

أستاذ دكتور منيع عبد الحليم محمود
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر
عميد كلية أصول الدين بالقاهرة

اسم سيدنا ابراهيم عليه السلام ونسبه

يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[1]

تدلنا هذه الآية القرآنية، على أن إسم أبى إبراهيم عليه السلام هو آزر. أما أهل الكتاب فإنهم يذكرون لسيدنا إبراهيم عليه السلام نسباً آخر هو : إبراهيم بن تارح، بن ناحور، بن ساروغ، بن راعو، بن فالغ، بن عابر، بن شالح، بن أرفخشد، بن سام، بن نوح ، عليه السلام.

هذا الاختلاف: بين ما ذكر فى القرآن، وما ذكر فى كتب أهل الكتاب، اتخذ منه المعادون للاسلام -قديماً وحديثاً- مادة لمحاولة إثبات وجود خطأ فى القرآن من ناحية تسمية أبى إبراهيم.

وقد كتب كثير من المفسرين بالرد على هذا الهجوم، ومن أقوالهم فى ذلك:

١ - إنه إسم صنم كان يعبده فلقب به للزوم عبادته له، وأطلق عليه بحذف المضاف.

وقيل: المراد به الصنم، ونصبه بفعل مضمر يفسر ما بعده، أى: أتعبد آرز؟

٢ - أن آزر لم يكن أبوه، بل كان عمه، وما دام أن عم الرجل صنو أبيه، كما جاء فى الحديث، فقد عبر القرآن عن عمه بلفظ الأب.

٣ - أن هذين الإسمين علمان له، كإسرائيل ويعقوب.

(١) سورة الانعام، آية: ٧٤.

٤ - أن العلم: تارح وآرز وصف، معناه الشيخ أو المعوج، ولعل منع صرفه لأنه أعجمى حمل على موازنة أو نعت مشتق من الأزر أو الوزر.

٥ - أنه علم أعجمى على فاعل كشالح.

٦ - قال الطبرى: والصواب أن إسمه آزر، ولعل له إسمين علمين، أو أحدهما لقب والآخر علم.

أما عن رأينا فى هذا الموضوع فهو: أن الذى ذكره المؤرخون من أن إسم أبى إبراهيم عليه السلام، تارح، فهو منقول عن التوراة.

والمقطوع به عند العلماء أن التوراة قد دخل إليها تحريف، فلم يعد مجال للوثوق بما فيها من نصوص.

ومن عجيب الأمور أن بعض المفسرين ساروا فى ركاب المؤرخين، فادعوا أن إسم أبى إبراهيم هو تارح، وأن آزر هو عمه.

ولعل الذى دفعهم إلى هذا هو تنزيه ساحة سيدنا إبراهيم عليه السلام عن أن يكون له والد مشرك، وهو أب للأنبياء، مع أن الأمر ليس فيه ما يخل بمقام سيدنا إبراهيم عليه السلام، أو ينقص من قدره، فإن الهداية بيد الله، يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين.

فزوجة فرعون مؤمنة، وولد نوح كافر، ولم ينقص ذلك من قدر أحدهما شيئاً.

وقد أخبرنا رسول الله، ﷺ، أن والد إبراهيم هو آزر، وذلك فى الحديث الذى رواه البخارى، قال:

حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثنى أخى عبد الحميد، عن ابن أبى ذئب، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة، عن النبى، ﷺ، قال:

«يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم:

ألم أقل لك لا تعصنى؟

فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك.

فيقول إبراهيم: يارب إنك وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون، وأى خزى أخزى من أبى الأبعد؟

فيقول الله: إنى حرمت الجنة على الكافرين.

ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟

فينظر، فإذا هو بذيح متلطج، فيؤخد بقوائمه فيلقى فى النار».

فهذا الحديث نص على أن إسم أبى إبراهيم آزر، كما ورد فى القرآن، وهو الحق الذى لا نحيد عنه.

مولده ونشأته

يذكر بعض المؤرخين: أن سيدنا إبراهيم عليه السلام، ولد بغوطة دمشق، فى قربة يقال لها (برزة)، فى جبل (قاسيون).

والصحيح المشهور عند أهل السيرة والتواريخ أنه ولد (ببابل)، وهى أرض الكلدانيين فى العراق.

قال ابن كثير، بعد أن ذكر الرواية الأولى:

والصحيح أنه ولد فى (بابل)، وإنما نسب إليه هذا المقام (يعنى ولادته بغوطة دمشق)، لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً لابن أخيه لوط عليه السلام.

ولد سيدنا إبراهيم عليه السلام بعد أن بلغ والده(٧٥) سنة، وكان هو الولد الأكبر، وقد جاء بعده أخواه: (ناحور)، و(هاران)، وولد (لهاران) (لوط) عليه السلام، فهو ابن أخ إبراهيم عليه السلام.

وقد ذكر بعض الكتاب: أن إبراهيم عليه السلام هو الولد الأوسط، وأن (هاران) مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها، وهي أرض الكلدانيين، وهذا غير صحيح، بل الصحيح الأول، كما تدلنا على ذلك المصادر التاريخية المعتمدة.

وقد تزوج سيدنا إبراهيم عليه السلام حين كبر بالسيدة سارة، وكانت عاقراً لاتلد، ثم هاجر مع والده وزوجته، فخرجوا من أرض الكلدانيين (أرض العراق) إلى أرض الكنعانيين، وهي (بلاد المقدس)، فأقاموا في (حران)، وهي بلدة قريبة من الشام، كان أهلها يعبدون الكواكب السبعة، وكان أهل الشام، وأهل الجزيرة -كما يروى ابن كثير- على هذه العقيدة الضالة، يستقبلون القطب الشمالي، ويعبدون الكواكب السبعة، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة (هيكل) لكوكب منها، وكانوا يعملون لها أعياداً وقرابين، وهكذا كان أهل (حران) يعبدون الكواكب والأصنام.

ولم يكن على ظهر الأرض، في ذلك الوقت، أحد على الإيمان سوى سيدنا إبراهيم عليه السلام، وامرأته السيدة سارة، رضوان الله عليها، وابن أخيه سيدنا لوط عليه السلام.

دعوة سيدنا ابراهيم عليه السلام لأبيه

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾[١].

آتى الله، سبحانه وتعالى، سيدنا إبراهيم عليه السلام، رشده فى صغره، فإن النبوة سفارة بين الله وخلقه، يقصد بها إصلاح أمرهم، وهبة من الله سبحانه وتعالى يمنحها لمن يصطفيهم من عباده، بعد أن يربيهم التربية الصحيحة التى بها يكونون مؤهلين لتلقى الوحى من الله سبحانه وتعالى فى أى وقت.

وكانت أول دعوته عليه السلام لأبيه، وكان أبوه ممن يعبدون الأصنام، بل كان من المغرقين فى عبادتها، ففى بعض الروايات: أنه كان يصنعها بنفسه وفى بعض آخر أنه كان أميناً لبيت الأصنام:

يقول الله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[٢]

(١) سورة الأنبياء، آية: ٥١.

(٢) سورة مريم ، الآيات: من ٤١ إلى ٤٨.

لقد قص علينا القرآن الكريم، دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام لأبيه، فقد كان أبوه مشركا يعبد الأصنام، وأحق الناس بإخلاص النصيحة له: إنما هو أبوه، ولهذا لم يدع الخليل عليه السلام أى وسيلة لتذكير أبيه ونصحه وتحذيره من عذاب الله، وقد كان إبراهيم فى دعوته لأبيه مثالا للابن البار الذى لا يريد إلا الخير بأقرب الناس إليه، فلم يشتد عليه فى الكلام، ولم يعنفه أو يزعجه، إنه خاطبه بكل أدب ووقار، وجادله بألطف عبارة، فبين له فى محاورته بطلان ما هو عليه من عبادة لأوثان وأصنام لا تضر، ولا تنفع، ولا تبصر، ولا تسمع، ولا تغنى عن صاحبها، ولا عن نفسها شيئاً، وذكر بأن هذه الأصنام إذا لم تستطع أن تدفع الضير عن نفسها، ولا أن تجلب الخير والنفع إليها، فكيف تستطيع أن تدفعه عن غيرها؟ أو كيف تستطيع أن تحقق لعابدها ما يرجوه منها، مع أنها تفقد القدرة والقوة على عمل شئ من الأشياء؟ ولكن أباه لم يستجب لهذا النصح، ولم يعتبر بمنطق الحجة والبرهان، بل أصر على الضلال والعناد، وهدد ولده بالقتل والضرب، فيما إذا عاد إلى ذكر آلهته المزعومة بالسوء أو الشر.

ورغم ذلك كله، فقد استغفر سيدنا ابراهيم عليه السلام لأبيه كما وعده، فطلب له من ربه المغفرة والرضوان، وكان هذا الإستغفار طمعاً من سيدنا إبراهيم عليه السلام فى إيمان أبيه، ولكنه حين ظهر له إصرار أبيه على الشرك، وعداوته المستمرة لدين الله سبحانه وتعالى، تبرأ سيدنا إبراهيم عليه السلام منه نتيجة لذلك:

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[1]

(١) سورة التوبة، آية: ١١٤

دعوة سيدنا ابراهيم عليه السلام لقومه

(١)

الظاهر لنا من متابعة موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام من هدايته لقومه ودعوته لهم، أنها كانت مواقف متعددة، حاول فيها هداية قومه بكافة الطرق وشتى الوسائل، إقرأ قول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[١]

---

(١) سورة الأنعام، الآيات من: ٧٥ إلى ٨٣.

وهذا الموقف الذى نراه، موقف المناظرة لقومه، هو توضيح وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب، لا تصلح للألوهية، ولا أن تعبد مع الله عز وجل، لأنها مخلوقة مربوبة، مصنوعة، مسخرة، تطلع تارة وتأفل أخرى، فتغيب عن هذا العالم، والله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شئ، ولا تخفى عليه خافية بل هو الدائم الباقى.

ويتوهم بعض الكتاب من هذه الآيات: أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان يعتقد ألوهية الكواكب فى مبدأ أمره، فلما أفلت رجع عن اعتقاده إلى اعتقاد ألوهية القمر، حينما رآه بازغاً، فلما أفل رجع عن اعتقاده إلى اعتقاد ألوهية الشمس ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى﴾، معتقداً ألوهيتها، إلى أن اهتدى أخيراً إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

وقد نقل الطبرى فى معنى هذه الآيات:

أنه قال ذلك مسترشداً طالباً للتوحيد، حتى وفقه الله إليه، وروى ذلك بسنده عن ابن عباس قوله:

«وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض، وليكون من الموقنين»، يعنى به الشمس والقمر والنجوم.

«فلما جن عليه الليل رأى كوكباً، قال: هذا ربى»، فعبده حتى غاب، «قال لا أحب الآفلين».

«فلما رأى القمر بازغاً قال: هذا ربى»، فعبده حتى غاب، قال: «لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين».

«فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربى هذا أكبر»، فعبدها حتى غابت، فلما غابت «قال: ياقوم إنى برئ مما تشركون[(١)]».

وروى رواية طويلة أخرى، عن محمد بن إسحاق تفيد: أن هذا كان من سيدنا إبراهيم عليه السلام حال طفوليته، لأن أمه ولدته فى مغارة

(١) تفسير الطبرى، جـ٧، ص١٤٩ وما بعدها.

وأخفته فيـها خوفاً عليه من النمروذ، إذ قد أخبـره المنجمون: أنه سيولد غلام فى قريته، يفارق دينه، ويكسر الأصنام، فشرع يذبح كل غلام يولد فى المدة التى أخبره بها المنجمون، وأنه خرج من المغـارة بعد خمسة عشر يوماً، فنظر وتفكر فى خلق السموات والأرض، ثم نـظر فرأى كوكباً. . إلى آخر ما ذكرته الآيات بعد ذلك.

ثم قال الطبرى، بعد أن أورد تلك الروايات، وذكر رأى الجمهور الذى يقول: أن إبراهيم قال ذلك فى مقام الاستـدلال على قومه، كما سنذكر ذلك بعد قليل -قال الطبرى: وفى خـبر الله تعالى عن قول إبراهيم حين أفل القـمـر: «لئن لم يهـدنى ربى لأكـونن من القـوم الضـالين»، وأن الصواب مـن القول فى ذلك، الإقـرار بخبر اللـه تعالى، الذى أخـبر به عنه، والإعراض عما عداه[١]».

ولا شك أن هذه الشبـهه باطلة، وما ذهب إليه الطبـرى كذلك، لأن الجمهور من الأئمة قالوا:

أنه لا يجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتى عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى موحد، وبه عارف، ومن كل معبود سواه برئ، وقد قص الله تعالى، مـن حال إبراهيم عليه السـلام خصـوصاً فى صغـره، مالا يتوهم معه شائبة مما يناقض ذلك[٢]. أ.هـ.

ولنا أن نضيف إلى رأى جـمهور علماء المسلمين تحـديد القرآن الكريم لمعنى النبوة، والأساس الأول لتحديد معنى النبوة فى القرآن الكريم هو:

أن الله يصطفى الأنبـيـاء ويجتـبـيهم لنـفسـه، ويرسم حـياتهم قـبل مـيلادهم، فـيـختـار لهم النسب الشـريف الذى يميـزهم عن غيـرهم، ويصنعهم على عينه.

(١) تفسير الطبرى، جـ٧، ص١٥.

(٢) تفسير الألوسى، جـ٧، ص١٧٣.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[١]

ويقول: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٢].

ويقول: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[٣].

فالنبوة اصطفاء وهداية منذ بدء حياة الأنبياء، فكيف يتأتى لنبى أن يحاول هداية نفسه عن طريق الكواكب والقمر والشمس؟

الأساس الثانى لتحديد معنى النبوة فى القرآن الكريم وهو: حالة تلقى الوحى، فبعد أن يصطفى الله رسله، ويربيهم، ويعنى بهم العناية الكاملة، يفاجئهم بتلقى الوحى.

يقول الله تعالى:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٢٣.

(٢) سورة النساء، آية: ١٢٥.

(٣) سورة طه، آية: ٢٩.

(٤) سورة طه، الآيات: ٩- ١٦.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

ويفاجئ الرسول، ﷺ، الوحى وهو فى غار حراء.

روى البخارى بسنده، عن السيدة عائشة أم المؤمنين، أنها قالت:

أول ما بدء به رسول الله ﷺ، من الوحى، الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه: (وهو التعبد) الليالى ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ.

قال: ما أنا بقارئ.

قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى.

فقال: اقرأ:

قلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى.

فقال: اقرأ.

فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى.

فقال:

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم﴾، فرجع بها رسول الله، ﷺ، يرجف فؤداه، فدخل على خديجة بنت خويلد، رضى الله عنهما، فقال: زملونى، فزملوه، حتى

(١) سورة القصص، الآيات: ٢٩ و٣٠.

ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر:

لقد خشيت على نفسى.

فقالت خديجة:

كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقوى الضعيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى -ابن عم خديجة- وكان امرؤ قد تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية إلى مشاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمى.

فقالت له خديجة:

يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك:

فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزل على موسى.. ياليتنى فيها جذعا، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك؟

فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجى هم؟

قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى[1].

هذا هو المنهج القرآنى لتعريف النبوة، والذى يمثل لنا التعريف الصحيح لها، باعتباره النص الذى آتانا من عند الله سبحانه وتعالى، وعن سيدنا محمد، ﷺ، ولنا أن نوجزه فنقول:

النبوة سفارة بين الله وخلقه، يقصد بها إصلاح أمرهم، وهبة من الله سبحانه وتعالى، يمنحها لمن يصطفيهم من عباده، بعد أن يربيهم التربية الصحيحة التى بها يكونون مؤهلين لتلقى الوحى من الله، سبحانه وتعالى، فى أى وقت.

---

(١) رواه البخارى فى باب كيف كان بدء الوحى، وفى كتاب التفسير عند تفسير سورة «اقرأ» وفى كتاب التعبير، ورواه الإمام مسلم فى باب بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ.

رد شبهة حديثة حول سيدنا ابراهيم عليه السلام

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه الله: أن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب وهى:

١ - دور التعدد.

٢ - دور التمييز والترجيح.

٣ - دور الوحدانية.

ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تـتخذ لها أرباباً تعد بالعشرات، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات.

وفى الدور الثانى -وهو دور التمييز والترجيح- تبقى الأرباب على كثرتها، ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرها.

وفى الدور الثالث: توحد الأمة، فتجتمع إلى عبادة واحدة، تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل إقليم من الأقاليم المتفرقة.

ثم ينتهى الأمر بالأستاذ العقاد إلى زن يقرر أن: ديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح، لأنها أكبر ما تقع عليه العين، وتعلل به الخليقة والحياة، فإذا دخلت هى أيضاً فى عداد المعلولات، فقد أصبح الكون كله فى حاجة إلى خالق موجد للأرض والسماء والكواكب والأقمار، وينطبق هذا الترتيب تمام الإنطباق على فحوى قصة إبراهيم فى القرآن الكريم:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ .

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ .

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ .

ويبدو: أن الإجابة على الأستاذ العقاد ستكون من شقين:

الشق الأول: وهو مسألة التوحيد نفسها: فإننا إذا قيمنا آراء العلماء الغربيين، سواء منها القائل: بأسبقية الوثنية على التوحيد، أو بأسبقية التوحيد على الوثنية، نخرج بالنتائج التالية:

١ - أننا لا نستطيع أن نؤكد -في ثقة ويقين- نشأة الوثنية وتاريخها، فإن تحديد تاريخها ونشأتها يعود بنا إلى أزمان سحيقة لا يستطيع أى باحث الوصول إلى أبعادها، فكل تلك النظريات التى تتحدث فى ذلك الموضوع، وفى تحديداته ليست إلا فروض ظنية وتخمينات عقلية.

٢ - أن العلماء يبنون افتراضاتهم على أساس ترقى الإنسان من الجهل والخرافة إلى العقيدة السليمة بالتدريج، وهذا فيه شك، نظراً لأن بعض علماء الإنسان الآخرين، وعلماء الآثار ذكروا -فى كثير من كتبهم- إستدلالات على أن الشعوب التى نراها بدائية الآن سبقتها حضارات كان لها أثر كبير فى الماضى، وإن كثيراً من الشعوب التى نراها متقدمة قد سبقتها فى أغوار بعيدة من الزمن فترة من الظلام والجهل والتخلف.

٣ - أن منهج هؤلاء العلماء قائم على إستقراء أحوال الأمم الموجودة فى عصرنا، ولكنها متخلفة وبدائية، ومنعزلة عن العالم المحيط بها، فهى فى نظرهم تمثل الحالة التى كان عليها الإنسان فى بدايته، وهذا مبنى على

الفرض والتخمين، فقد تكون هذه الحالة سبقتها مدينة عظيمة، وكثير من القبائل الهمجية قد مرت بأدوار شتى وتطورات بعيدة المدى.

٤ - إن العلماء وضعوا فروضهم تلك على أساس تماثل أبناء كل عصر فى تفكيرهم، ونوعية عبادتهم، ونحن نلاحظ أن فى كل عصر وكل أمة يكون هناك بعض الأفراد المستنيرين، وبعضهم تغشاه الظلمة، ولعل المثل الموجود بين أيدينا هو مثل الحنفاء فى المجتمع القرشى، ومثل عباد الأصنام.

٥ - قاس العلماء التطور والدين على التطور الحضارى، مع أن التاريخ يثبت عكس ذلك، فلربما تكون الأمة غاية فى الحضارة، وفى الفكر الدينى غاية فى التأخير والجهل، كحال الإمبراطوريات الفارسية، والرومانية، والهندية، فمع تقدم هذه الأمم الحضارى الكبير، كانت فى غاية الإغراق فى عبادة الأوثان.

النتيجة التى نخرج بها من تقييمنا لهذه الآراء:

بعد تقييمنا لآراء علماء الإنسان والفلاسفة، نخرج بالنتيجة التالية:

وهى أن جميع الفروض والنظريات السابقة، لا تصلح أساسًا لتأريخ العقيدة الوثنية وبيان نشأتها.

ويعدوالتساؤل مرة أخرى، فلا نجد إلا أن نسترشد بالقرآن بصفة رئيسية، فهو الوحى المعصوم، والنور المضئ فى ظلمة التاريخ.

والواقع أن القرآن يقدم لنا البيان الشافى فى هذا الموضوع، بعد أن ثبت عجز وسائلنا البشرية عن الوصول إلى الهداية عن طريق العقل وحده، ونؤيد فى هذا الرأى الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه (الدين)، يقول، بعد أن استقرأ أقوال العلماء فى هذا الموضوع:

هكذا عجزت وسائل العلوم، أن تقدم لنا بيانًا شافيًا يطمئن إليه القلب عن ديانة الإنسان الأول، أما من أحب أن يسترشد بنصوص الكتب

السماوية، فإنه سوف يجد فيها ما يشد أزر القائلين بأولية العقيدة الإلهية الصحيحة، لا فى الغريزة فحسب:

﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها﴾

بل فى التطور الزمانى كذلك.

فهذه النصوص تنادى بأن الناس بدؤا حياتهم مستقيمين على الحق، مؤتلفين عليه، وأن الإنحراف والاختلاف، إنما جاء عرضا طارئًا بعد ذلك.

﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا﴾.

وإن استقرار هذا الخلاف واتساع شقته، إنما كان بتأثير الوراثة وتلقين كل جيل عقيدة الناشئين فيه:

(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه).

ولأجل ذلك كله، فإن الكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تترك وشأنها تستلهم غرائزها وحدها بغير مرشد ومذكر، بل تعهدتها السماء بنور الوحى من أول يوم، فكان أبو البشر هو أول الأفذاذ المسلمين، وأول المؤمنين الموحدين، وأول المتضرعين الأوابين.

لكن الإلتجاء إلى هذه النصوص اعتراف ضمنى بأن وسائل العلم البشرى وحدها عاجزة عن أن تصل بنا من طريق يفضى إلى نقطة البدء الحقيقى للدين.

والواقع أن الحل النهائى لهذه المسألة إنما يكون عن طريق الوحى، لأنها داخلة فى منطقة الغيب التى هى موضوع الإيمان، وليست من شأن العلوم الإستقرائية، ولا العلوم الإستنتاجية.

وجملة القول: أن كل النظريات التى حاولت تحديد ديانة الإنسان الأول، بالتطبيق على ديانات القرون الماضية، أو الأمم الهمجية فصورتها

لنا تارة سليمة، وتارة سقيمة، وتارة ملفقة، إنما هى افتراضات مثبوتة على افتراضات، فهى لا تصف الحق الثابت الذى هو مطلب العلم الصحيح، وإنما تفرض إحتمالا.

الشق الثانى من شبهة الأستاذ العقاد: وهو الخاص بتطور الألوهية فى فكر سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقد ساق الإمام الفخر الرازى من الحجج على بطلان هذه الفكرة بما يغنى عن أى قول فى هذا الموضوع، يقول الإمام الرازى:

١ - إن إبراهيم عليه السلام، كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة بالدليل، والدليل على صحة ما ذكر: أنه تعالى أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة لأبيه آزر: (أتتخذ أصنامًا آلهة؟).

٢ - دعا إبراهيم عليه السلام أباه إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام بالرفق، حيث قال: (يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئًا؟)، وحكى فى هذا الموضع: أنه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالكلام الخشن واللفظ الموحش.

ومن المعلوم: أن من دعا غيره إلى الله تعالى، فإنه يقدم الرفق على التعنيف، ولا يخوض فى التعنيف والتغليظ، إلا بعد المدة المديدة واليأس التام، فدل هذا: على أن هذه الواقعة، إنما وقعت بعد أن دعا أباه إلى التوحيد مرار وأطوارا.

ولاشك أنه: إنما اشتغل بدعوة أبيه بعد فراغه من نفسه، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن عرف الله بمدة.

٣ - قال الله تعالى قبل هذه الآيات:

﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾، أى: وليكون بسبب تلك الإراءة من الموقنين.

ثم قال بعد: ﴿فلما جن عليه الليل﴾.

والفاء تقتضى الترتيب، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم عليه السلام من الموقنين العارفين بربه.

٤ - أن هذه الواقعة: إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام، والدليل عليه: أنه تعالى لما ذكر هذه القصة قال:

﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾، ولم يقل -على نفسه- فعلم أن المناظرة إنما جرت مع قومه، لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد، لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه.

٥ - أن الرواية التى ذكرها الطبرى عن ابن اسحاق، تفيد أن إبراهيم عليه السلام، إنما اشتغل بالنظر فى الكواكب، والقمر والشمس، حال ما كان فى الغار، وهذا باطل، لأنه لو كان الأمر كذلك فكيف يقول :

(ياقوم إنى برئ مما تشركون؟)، مع أنه ما كان فى الغار قوم ولا صنم.

٦ - قال الله تعالى بعد هذه الآيات: (وحاجه قومه، قال أتحاجونى فى الله؟ وكيف يحاجونه وهم بعد ما رأوه وهو مارآهم[1]. أ. هـ.

من هذه الأدلة يتضح الرد على الشبهة. والواقع أننا أفضنا فيها حتى لا يلتبس على الناس الأمر، بالنسبة لعقيدة التوحيد، وعقيدة إصطفاء الأنبياء، وأن الله سبحانه وتعالى يصنعهم على عينه، وهم جميعًا بأعينه.

(١) تفسير الفخر الرازى، جـ٤، ص٧٥.

تفسير الآيات

بعد أن ذكرنا الدلائل على إبطال الشبهة، نذكر الرأى المختار فى تفسير الآيات، فنقول: وبالله التوفيق:

إن إبراهيم عليه السلام حينما قال: «هذا ربى»، مشيراً إلى الكواكب، ثم إلى القمر، ثم إلى الشمس، لم يكن معتقداً ربوبيتها، وإنما كان مؤمناً بالله، لا يخالجه فى ذلك شك.

وإنما قال سيدنا إبراهيم عليه السلام ذلك فى مقام الإستدلال على قومه، فقد كانوا يعبدون الأصنام والكواكب والشمس والقمر.

وقيل: إنهم كانوا يعبدون الكواكب ويصورون الأصنام على صورها فى هياكلهم.

ولما كان القوم أهل عناد ومكابرة، فقد ألفوا عبادة ما يعبد أباؤهم، فسلك سيدنا إبراهيم معهم أوضح الطرق، لينبههم على الخطأ فى دينهم، ويرشدهم إلى طريق النظر والإستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح يؤدى إلى أن شيئًا من معبوداتهم لا تصح له الألوهية، لقيام دليل الحدوث فيهم، وأن لها محدثا أحدثها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها.

وأخذ الخليل يجاريهم فى الإستدلال، ليتوصل إلى مقصد ما «فلما جن عليه الليل»، أى ستره بظلامه، «رأى كوكبا» عظيما قيل: إنه المشترى، «قال هذا ربى»، مجاراة لهم على سبيل الفرض والتقدير، «فلما أفل»: فلما غاب هذا الكوكب قال: «لا أحب الآفلين»: لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى مكان، فدلهم بذلك على عدم صلاحية الكوكب للعبادة، فكأنه يقول لهم:

لو كان هذا الرب متغيراً كما تزعمون، للزم أن يكون الرب متغيرا من حالة إلـى حالة، وهذا باطل، لأن التـغيـير دليل الحـدوث، والحادث لا يكون ربا.

ولما أقام سيـدنا إبراهيم عليه السلام الحجة علـيهم، وتبلج الحق، تبرأ من الشرك الذى هم عليه، وأعقب ذلك ببيان العقيدة الصادقة، فقال:

﴿يا قـوم إنى برئ ممـا تشـركـون، إنى وجـهت وجـهـى للذى فطر السموات والأرض حنيفا، وما أنا من المشركين﴾.

دعوة سيدنا ابراهيم عليه السلام لقومه

(٢)

يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ .

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ؟

قَالُوا : وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ .

قَالَ : لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

قَالُوا : أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ؟

قَالَ : بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ .

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ .

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ .

قَالُوا : مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ .

قَالُوا : سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ .

قَالُوا : فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ .

قَالُوا : أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟

قَالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ .

فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا : إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ .

ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ .

قَالَ : أَفَتَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّه مَا لا ينفعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضرُّكُمْ ؟

أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّه أَفَلا تعْقلُونَ .

قَالُوا : حرِّقُوهُ وانصرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعلينَ .

قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي برْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ .

وأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾[1]

وقال تعالى فى سورة الشعراء:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ .

إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ .

قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ .

قَالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ؟

قَالُوا : بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ .

قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ؟ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ .

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ .

وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ .

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ .

وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ .

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2].

---

(١) سورة الأنبياء، الأيات: من ٥١ إلى ٧٠.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: من٦٩ إلى ٨٣.

وقال تعالى فى سورة الصافات:

﴿وَإِنَّ من شيعته لإبراهيمَ ﴿٨٣﴾ إذْ جاءَ ربَّهُ بقلبٍ سليمٍ ﴿٨٤﴾ إذْ قالَ لأبيه وقومه ماذا تعبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أئفكًا آلهةً دونَ اللَّه تُريدُونَ ؟

فما ظنُّكُم بربِّ الْعالَمينَ ؟

فَنظرَ نظْرَةً في النُّجومِ ﴿٨٨﴾ فقالَ إنِّي سقيمٌ .

فتولَّوْا عنْهُ مُدْبرين ﴿٩٠﴾ فراغَ إلىٰ آلهتهمْ فقالَ: ألا تأْكُلُون ؟ ما لكُمْ لا تنطقُونَ ؟ فراغَ عليْهِمْ ضرْبًا بالْيمين ﴿٩٣﴾ فأقْبلُوا إليْه يزفُّونَ .

قالَ: أتعْبُدُونَ ما تنْحتُونَ ﴿٩٥﴾ واللَّهُ خلقكُمْ وما تعْملُونَ ؟

قالُوا: ابْنوا لهُ بُنْيانًا فألقُوهُ في الْجحيمِ .

فأرادُوا به كيْدًا فجعلْناهُمُ الأسْفلينَ﴾[1].

لقد استـمر سيدنا إبراهيم عليـه السلام، يدعو قومـه إلى عبادة الله، ويقيم لهم الحجة تلوا الحجة، على فساد ما هم عليه من العبادة.

لقد أنكر عليهم عبادة الأوثان، فقال:

﴿ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟﴾.

أى معتكفـون عندها.. وخاضعون لها، فمـا كان ردهم إلا أنهم فعلوا ذلك تقليدا لآبائهم وأجدادهم.

قالوا: ﴿وجدنا آبائنا لها عابدين﴾.

فقال لهم: ﴿لقد كنتم وآباؤكم فى ضلال مبين﴾.

كما فى قوله تعالى:

﴿إذ قال لأبيه وقـومه ماذا تعبدون، أئفكًا آلهـة دون الله تريدون، فما ظنكم برب العالمين؟﴾.

---

(١) سورة الصافات، الآيات: من٨٣ إلى ٩٨.

قال قتادة:

فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذ لقيتموه وقد عبدتم غيره!!

وسألهم سيدنا إبراهيم عليه السلام عن آلهتهم: هل يسمعونهم إذا دعوهم، أو ينفعونهم أو يضرونهم؟ فكانت إجابتهم أنهم:

﴿وجدو آباءهم كذلك يفعلون﴾!

ويظهر لنا من هذا أنهم سلموا له، أنها لا تسمع داعياً، ولا تنفع، ولا تضر، وأن عبادتهم لها محض تقليد لا غير، ولهذا قال لهم.

﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين﴾.

وهذا برهان قاطع على بطلان ألوهية ما ادعوه من الأصنام، لأنه تبرأ منها، فلو كانت تضر لضرته.

واستمروا فى عنادهم، فقالوا:

أجئتنا بالحق، أم أنت من اللاعبين؟

فرد عليهم قائلا:

﴿بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾.

يعنى: بل أقول لكم ذلك جاداً محقًا، وإنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو، هو ربكم ورب كل شئ، وخالق السموات والأرض فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنا على ذلك من الشاهدين.

كل ذلك: أبان لسيدنا إبراهيم عليه السلام، أنه لا ينفع معهم حجة ولا برهان، وأن عقلهم لا يزن الأمور بميزان المنطق الصحيح، فعمد عليه السلام إلى برهان عملى قام به فى جد جاد، وتغلب غالب، لا يثنيه عنه سلطانهم، فترك القوم ينصرفون إلى عيد من أعيادهم، معتذرا عن الذهاب معهم بقوله:

«إنى سقيم»

وبعد أن خرجوا راغ إلى آلهتهم، أى ذهب إليها مسرعاً متخفياً، فقال لها على سبيل التهكم والإزدراء، وقد وجد أن قومه قد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قربانا لها، فقال:

﴿ألا تأكلون؟ مالكم لا تنطقون؟ فراغ عليهم ضربا باليمين﴾.

لقد حطم سيدنا إبراهيم عليه السلام الأصنام، فجعلها جذاذاً، أى حطاماً، أى كسرها كلها، ولم يترك منها سوى كبير هذه الأصنام.

فلما رجع القوم من عيدهم، ورأوا ما حل بآلهتهم قالوا:

﴿من فعل هذا بآلهتنا؟ إنه لمن الضالين!﴾

قالوا: سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم.

أى يذكرها بالعيب والنقص والازدراء بها، فلابد أن يكون هو الفاعل لهذا.

قالوا: فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون نادوا بأن يأتوا به على أعين الناس ليشهدوا عليه بمقالته، ويروا ما يحل به من شديد العقاب.

ولا شك أن اجتماع القوم كانت أمنية لسيدنا إبراهيم عليه السلام ليقيم لهم الحجة جميعاً على بطلان ما يعتقدون، ويريهم البرهان على فساد ما هم عليه عاكفون.

(المحاكمة)

تقدم سيدنا إبراهيم عليه السلام للمحاكمة، وهنا شخصت الأبصار لسماع الجواب، والنقاش، وعرضت عليه تلك الأسئلة.

س: أأنت فعل هذه بآلهتنا يا إبراهيم؟

ولكن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان حكيما ذكيًا، صاحب عقل ومنطق، سار بهم فى الجدال إلى ناحية أخرى، ليبلغ رسالته، مهما كانت النتائج، وبرهن بطريق الحكمة إلى جواب لم يقصدوه، ليلزمهم الحجة، لعلهم يرجعون إلى صوابهم، فقال:

﴿بل فعله كبيرهم هذا، فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾.

صفعهم بهذه الحجة الدامغة، التى نبهتهم من غفلتهم، وأيقظتهم من غفوتهم، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وقالوا:

﴿إنكم أنتم الظالمون﴾.

لقد تركتموها لا حافظ لها، ولا رقيب عندها، فحطمها من لا يؤمن بها، ثم أدركتهم الحيرة، وعقدت ألسنتهم، فأطرقوا مفكرين، ثم توجهوا بالكلام مع سيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾.

لقد عرفت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا ترد سؤالا، ولا تسمع كلامًا، فكيف تأمرنا بسؤالها، وهى حجارة صماء جامدة.

ولما أقروا بعجز الآلهة، وقصورها عن معرفة ما يجرى حولها، وجردوها من القدرة على دفع العدوان، ورد كيد المعتدين.

حينئذ ظهرت حجة سيدنا إبراهيم عليه السلام واضحة، ورأى الفرصة سانحة لإلزامهم بالمنطق السوى السليم، فقال لهم:

﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون﴾.

فلما غلبوا على أمرهم، وخافوا إفتضاح حالهم، ولم تبق لهم حجة أو شبهة يكابرون بها، عمدوا إلى القوة يسترون بها هزيمتهم، ويخفون باطلهم، فقالوا:

﴿حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾.

وضع ابراهيم عليه السلام فى النار

شرع القوم يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له، حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبا لحريق إبراهيم. ووضعوا ما جمعوا من الحطب فى المكان المعد له، وأشعلوا فيه النار، فاضطربت، وعلالها شرر لم ير مثله، ثم وضعوا الخليل فى منجنيق وألقوا به فى النار.

روى البخارى بسنده، عن ابن عباس، أنه قال: عندما ألقى إبراهيم فى النار قال:

﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

واستجاب الله له، فقد كان فى رعاية الله وكلئه، فلم تحرق منه إلا الوثاق:

﴿قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.

وهكذا رد الله كيدهم فى نحورهم، وأبان خسرانهم، وأرادوا به كيدا، فجعلناهم من الأخسرين.

رد شبهة أخرى حول سيدنا ابراهيم عليه السلام

لبعض الناس شـبهتـان توهمان -بحسب الـظاهر- صدور الكذب عن سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهاتان الشبهتان جاءتا من قول سيدنا إبراهيم عليه السلام فى أثناء دعوته لقومه بقوله فى مـعرض إعتذاره عن مصاحبة قومه فى عيدهم:

«إنى سقيم»

والثانية بعد سؤال قومه له عمن حطم الأصنام؟

فأجاب عليهم بقوله: «بل فعله كبيرهم هذا».

وأيضاً جاء الشبهتان نتيجة لما رواه الشيخان بسندهما عن النبى، ﷺ، قال:

«لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام إلا ثلاث كذبات، ثنتين فى ذات الله، عز وجل، قوله:

«إنى سقيم»

وقوله:

بل فعله كبيرهم هذا: وواحدة فى شأن سارة.. " الحديث.

ونجيب، بتوفيق الله تعالى، عن هاتين الشبهتين، فنقول:

١ - قال الله تعالى: فنظر نظرة فى النجوم، فقال:

«إنى سقيم»

وسيـدنا إبراهيم عليه السلام لم ينـظر فى النجوم على طريقة قـومه، الذين كانوا ينظرون فى الكواكب ويعظمونها، ويسـتدلون بأوضاعها على حوادث الكون عـامة أو خاصـة، بل كان نظره فيهـا نظر تدبر وتفكر فى مصنوعات الله سبحانه وتعالى.

ولاشك: أن النظر فى النجوم على هذا الوجه طاعه من أعظم الطاعات، فإن سيدنا إبراهيم عليه السلام، تأمل، فى الكواكب على طراز تأمل الكاملين فى خلق السموات والأرض، وتفكرهم فى ذلك، وهو اللائق بمقامه عليه السلام.

ثم إن نظره هذا كان حينما أرسل إليه ملك قومه، لما دنا يوم عيد لهم، وكانوا يخرجون فيه، إن غداً عيدنا فاحضر معنا، فاستشعر سيدنا إبراهيم عليه السلام سنوح فرصة لحصول ما عسى أن يكون سبباً لتوحيدهم، وهو إعدام أصنامهم فأراد أن يعتذر عن الحضور على وجه لا ينكرونه عليه، فنظر نظرة فى النجوم فقال: «إنى سقيم»، فنظره فى نفس الأمر تفكر وتدبر، ويوهم بظاهره أنه الطريق المألوف عندهم.

٢ - أما الجواب على الوجه الثانى: وهو قوله: «إنى سقيم»، فإنه عليه السلام أراد بذلك الإخبار بسقم القلب من الحزن بسبب عناد القوم له.

٣ - الرد على الشبهة الثانية، وهى: قول سيدنا إبراهيم عليه السلام «بل فعله كبيرهم هذا»، وللجواب عن هذا نقول:

يقول النيسابورى فى جـ١٧، ص٣٣ على هامش الطبرى: إن جمهور المحققين على المنع من أنه كذب وبيانه من وجوه:

الأول: أنه من المعاريض التى يقصد بها الحق، وهو إلزام الخصم وتبكيته، كما لو قال صاحبك وقد كتبت كتابا بخط فى غايه الحسن، أنت كتبت هذا، وصاحبك أمى لا يحسن الخط، فقلت له: بل كتبته أنت، كأن قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع استهزاء به، لا نفيه عنك وإثباته للأمى. أ.هـ.

وقد أصاب الخليل عليه السلام، بعض ما كان يبغى من هذا التعريض، إذ تنبه القوم لفساد ماهم عليه من عبادة الأصنام، ولكنهم ما

لبثوا أن ارتكسوا، وقابلوا دعوته بالقسوة والعنف، ليحموا عقائدهم الضالة منه ويبقوا عليها، يقول الله تعالى:

﴿فرجعوا إلى أنفسهم، فقالوا: إنكم أنتم الضالون، ثم نكسوا على رءوسهم، لقد علمت ما هؤلاء ينطوقون﴾.

وبهذا يتبين أن سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يكذب، وإنما أطلق رسول الله، ﷺ، لفظ الكذب على قول الخليل، بالنظر للصورة فقط، وإلا فهو ليس بكذب فى الحقيقة، ويقول القرطبى فى ذلك:

والأظهر أن قول إبراهيم، فيما أخبر عنه، كان من المعاريض، وإن كان معاريض وحجج فى الخالق ودلالات، ولكنها أثرت فى الرتبة، وخفضت عن محمد منزلة، واستحيا منها قائلها على ما ورد فى حديث الشفاعة، فإن الأنبياء يشفقون مما لايشفق منه غيرهم، إجلالا لله تعالى، فإن الذى كان يليق بمرتبته فى الخلة والنبوة، أن يصدع بالحق، ويصرح بالأمر كيفما كان، ولكنه رخص له، فقبل الرخصة، فكان ما كان من القصة. أ.هـ. تفسير القرطبى جـ١١ ص٣٠١.

مناظرة سيدنا ابراهيم عليه السلام للنمرود

يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ ترَ إِلَى الَّذي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّه أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ اذ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّيَ الَّذي يُحْيِي ويُميتُ .

قَالَ: أَنَا أُحْيِي وأُميتُ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

تحكى لنا هذه الآيات مناظرة حدثت بين سيدنا إبراهيم عليه السلام، وبين ملك بلغ به الكبر والتجبر عنيا، فادعى لنفسه الربوبية، ونازع الله، سبحانه وتعالى، فى عظمته وكبريائه، وهذا الجبار يسمى (النمرود بن كنعان)، وكان أحد ملوك الدنيا الأربعة، فقد ملك الدنيا -فيما ذكروا- أربعة: مؤمنان، وكافران..

أما المؤمنان فهما: (ذو القرنين)، الذى ذكره القرآن فى سورة الكهف، و(سليمان بن داود)، عليهما السلام.

أما الكافران فهما: (النمرود)، و(بختنصر).

وأما غيرهم: فلم يملك الدنيا، وإنما ملك بلداً أو بلاداً منها، مثل (فرعون)، فقد كان يملك أرض مصر.

وقد ذكر المؤرخون: (أن النمرود) هذا قد استمر فى ملكة مدة طويلة، طغى فيها وبغى وتجبر، وادعى لنفسه الربوبية، فناظره الخليل عليه السلام، فسفه عقله، وأبطل حجته، وألقمه الحجر.

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٨.

وكانت أول مناظرة لسيدنا إبراهيم عليه السلام مع النمرود، أنه حينما دخل عليه الخليل، عليه السلام، سأله النمرود:

من ربك يا إبراهيم ؟ وهل رب غيرى؟

فأجابه الخليل عليه السلام، بحديث العقل والإيمان -قال:

(ربى الذى يحيى ويميت): الذى يحيى الإنسان من العدم، ويميته، ثم يبعثه، فهو على كل شئ قدير.

ولكن النمرود عارضه بقوله:

(أنا أحيى وأميت)، أى أفعل ما يفعله ربك.

قال له: وكيف؟

فأتى النمرود برجلين من السجن قد استوجبا القتل، وأمر الجلاد بضرب عنق أحدهما، فضربه فمات!!

فقال النمرود: هذا أمته، وأمر بإطلاق سراح الثانى فأطلقه، فقال: وهذا أحييه!!

وبهذه الطريقة الهزلية، أراد النمرود أن يظهر قدرته على الإحياء والإماتة، اللتان هما من خصائص قدرة الله، سبحانه وتعالى، الأزلية

فلما رأى الخليل، عليه السلام وضاعته، وأنه ليس أهل للفهم، فإنه لا يعقل ولا يتدبر، انتقل معه إلى أمر لا يمكنه المعاندة ولا المراوغة فيه.

فقال له: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**[1]﴾.

وهنا انقطع الجدل، وبهت الذى كفر، وهكذا ظهر صوت الحق، وخفت صوت الباطل: ﴿والله لا يهدى القوم الكافرين﴾.

قال السدى: إن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم، عليه السلام والنمرود يوم خروجه من النار، ولم يكن قد اجتمع به يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٨.

نحن أحق بالشك من ابراهيم

يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾

قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِن ؟

قَالَ: بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .

قَالَ: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

سأل سيدنا إبراهيم عليه السلام ربه، سبحانه وتعالى، أن يريه كيف يحي الموتى، وأجابه الله، سبحانه وتعالى، إلى ما سأل، وأمره أن يعمد إلى أربعة من ا لطير، واختلف المفسرون فى تعيين نوعها، والمروى عن ابن عباس أنها: الغرنوق، والطاووس، والديك، والحمامة.

وأمره أن يمزق لحومهن وريشهن، ويخلط ذلك بعضه ببعض، ثم يقسمه أقساماً، و يجعل على كل جبل منهن جزءاً، ففعل كما أمره، ثم أمره أن يدعوهن بإذن ربهن، فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه، وكل ريشة تأتى إلى أختها، حتى عاد كل طائر إلى ما كان عليه، وسيدنا إبراهيم عليه السلام واقف ينظر إلى قدرة الله، سبحانه وتعالى، الذى يقول للشئ: كن فيكون، ثم آتين إليه سعياً، ليكون أبين له وأوضح من أن يأتين إليه طيرانا.

ولكن هل شك سيدنا ابراهيم عليه السلام:

وتوهم الآية التى بين أيدينا صدور الشك من سيدنا إبراهيم، عليه السلام فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، ويقول الإمام الطبرى فى ذلك:

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٠.

(وأن تكون مسألة ربه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض له فى قلبه[١]).

وقد أيدوا هذه الشبهة بما روى عن ابن عباس، يقول: (ما فى القرآن أرجى آية عندى منها)

وما روى عن عطاء بن أبى رباح أنه قال: (دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس)

وبما رواه أبو هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله، ﷺ، قال: (نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: رب أرنى كيف تحيى الموتى).

هذه الشبهة، شبهة ورود الشك على سيدنا إبراهيم عليه السلام، تتنافى فى نظرنا مع ما تقرر عندجمهور علماء المسلمين، من عصمة الأنبياء من الكفر أو الشرك فى الله، أو فى صفة من صفاته.

لذلك كان من الواجب علينا، أن نرد هذه الشبهة، ونفسر الآيات على الوجه الصحيح، الذى يتفق مع عصمة الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومما يدفع تلك الشبهة قول الإمام القرطبى فى تفسيره جـ٣ ص٢١٩:

﴿لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مثل هذا الشك، فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث، وقد أخبر الله، سبحانه وتعالى، أن الأنبياء والأولياء ليس للشيطان عليهم سبيل، فقال: ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾.

وقال اللعين: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾.

وإذا لم يكن له عليهم سلطان، فكيف يشككهم؟. أ.هـ.

أما ما روى عن ابن عباس، رضى الله عنه، على فرض صحته، فإن معناه والله أعلم: أنها أرجى آية، لأنه يكتفى فى الإيمان بالغيب بالإجمال دون التفصيل، وأنه لا يحتاج فى الإيمان إلى كثير بحث.

---

(١) معجم الطبرانى، جـ٣، ص٣٤.

وأما قول عطاء: فيحمل على أنه دخل فى قلبه ما يدخل قلوب الناس من الميل إلى المشاهدة والاطلاع على الكيفية، وهذه غريزة موجودة فى الطبع.

وأما ما رواه الشيخان بسندهما، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله، ﷺ، قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»: فهو أكبر شاهد على تنزيه ساحة إبراهيم من الشك، إذ قد شغب فريق من الناس عند نزول هذه الآية وقالوا:

شك إبراهيم ولم يشك نبينا، فقال عليه الصلاة والسلام:

﴿نحن أحق بالشك من إبراهيم﴾.

والمعنى: أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق بالشك منه، ونحن لا نشك، فإبراهيم، عليه الصلاة والسلام، أحرى ألا يشك.

والحديث مبنى على نفى الشك عنه،

يقول الحافظ بن حجر فى فتح البارى:

وأراد عليه الصلاة والسلام ما جرت به العادة فى المخاطبة لمن أراد أن يدفع عن آخر شيئاً، قال:

مهما أردت أن تقول لفلان فقله لى، ومقصوده لا تقل ذلك. أ.هـ.

وقد ذكر العلماء أسبابًا كثيرة لسؤال سيدنا إبراهيم، عليه السلام لربه أن يريه كيف يحيى الموتى، نختار منها هذا السبب.

أنه لما قال للنمرود ربى: ﴿الذى يحيى ويميت﴾، أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين سوى ذلك مشاهدة وفى هذا المعنى يقول صاحب المواقف من أن سؤال الخليل لم يكن عن شك فى قدرة الله تعالى:

بل طلبه، لأن فى عين اليقين ما ليس فى علم اليقين، فإن للوهم بأحداث الوسواس والدغادغ سلطاناً على القلب عند علم اليقين دون عين اليقين[١]. أ.هـ.

ويقول الزمخشرى فى معنى قوله: «ولكن ليطمئن قلبى»، ليزيد سكونا وطمأنينة، علم الضرورة علم الاستدلال، وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين، ولأن علم الاستدلال يبرز معه التشكيك، بخلاف العلم الضرورى، فأراد بطمأنينة القلب: العلم الذى لا مجال فيه للتشكيك. أ.هـ. الكشاف جـ١ .

السيدة سارة

لم تذكر لنا الكتب والمراجع شيئًا عن حياة سيدنا إبراهيم، صلوات الله عليه وسلامه، مع السيدة سارة بشئ كبير من التفصيل، فإن هذه الكتب اقتصرت على حوادث معينة، بل إنها تقريبًا متشابهة فى ذكرها لهذه الحوادث، وسنحاول هنا ربط هذه الحوادث، وإن كانت قليلة، بعضها ربطًا تاريخيًا.

اختلف العلماء فى والد سارة، مع القول بأن إسمه هاران، فقيل: هو ملك حران، وأن سيدنا إبراهيم عليه السلام تزوجها، لما هاجر من بلاد قومه إلى حران.

وقيل: هى إبنة أخيه، وكان ذلك جائزاً فى تلك الشريعة.

وقيل: بل هى بنت عمه.

وقد جاء فى الحديث النبوى الشريف، فيما ذكره البخارى: حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن عطاء، عن أبى هريرة، رضى الله عنه قال:

(١) المواقف وشروحها، جـ٨ ص٢٧١.

لم يكذب إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن فى ذات الله، عز وجل:

قوله: «إنى سقيم».

وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا»، وقال:

بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن هذا رجل معه إمرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فسأله عنها فقال: من هذه؟

قال أختى.

فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك. وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى، فلا تكذبينى. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ، فقال: إدعى الله لى ولا أضرك.

فدعت الله فأطلق.

ثم تناولها الثانية، فأخذ مثلها أو أشد، فقال:

إدعى الله لى ولا أضرك، فدعت فأطلق.

فدعا بعض حجبته فقال:

إنك لم تأتينى بإنسان، إنما أتيتنى بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلى، فأومأ بيده مهيم: قالت رد الله كيد الكافر، أو الفاجر فى نحره، وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة:

تلك أمكم يا بنى ماء السماء

يحكى هذا الحديث أن سيدنا إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، قد ذهب مع سارة إلى أرض جبار من الجبابرة، واسم الجبار المذكور هو امرئ القيس، بن سبأ، وأنه كان على مصر، ذكر ذلك السهيلى، وابن هشام، فى التيجان.

وقرر ابن قتيبة: أن اسمه صادوق، وكان على الأردن.

وقال الطبرى: أنه سنان بن علوان، بن عبيد بن بن عريج، ابن عملاق، بن لاود، بن سام، بن نوح، وكانت سارة أحسن الناس.

وفى صحيح مسلم، فى حديث الإسراء، من رواية ثابت، عن أنس فى ذكر يوسف.

«أعطى شطر الحسن».

زاد أبو يعلى من هذا الوجه، أعطى يوسف وأمه شطر الحسن، يعنى سارة.

فبلغ الجبار أن سيدنا إبراهيم دخل بإمرأة هى من أحسن الناس، وقد كان رآها بعض أهل الجبار، فأتاه فقال:

لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى أن تكون إلا لك.

فأرسل إليه الجبار يسأله عنها.

فقال: هى أختى، وأحس سيدنا إبراهيم، عليه السلام، أنه سيطلبها منه.

فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يقلب الأرض عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختى، وأنك أختى فى الإسلام.

وفى قول آخر: أنه أحس أنه سيطلبها منه قبل أن يحضر عنده.

فقال لها هذا القول.

واختلف العلماء فى السبب الذى حمل سيدنا إبراهيم، عليه السلام، على هذه الوصية، مع أن الظالم كان سيغتصبها، سواء كانت أختًا أم زوجة.

فقيل: كان من دين الملك ألا يتعرض لذوات الأزواج، وأن سيدنا ابراهيم، عليه السلام، أراد دفع أعظم الضررين بارتكاب أخفهما، وذلك

أن اغتصاب الملك إياها واقع لا محالة، لكن إن علم أن لها زوجًا على قيد الحياة، حملته الغيرة على قتله وإعدامه أو حبسه، بخلاف ما إذا علم أن لها أخًا.

وقيل: أراد إن علم أنك امرأتى ألزمنى بالطلاق.

وقيل: كان من دين الملك أن الأخ أحق بأن تكون أخته زوجته من غيره، فلذلك قال: هى أختى.

وقيل: أنه كان من رأى الجبار المذكور أن من كانت متزوجة لا يقربها حتى يقتل زوجها، فلذلك قال إبراهيم. هى أختى، لأنه إن كان عادلا خطبها منه، ثم يرجو موافقته عنها، وإن كان ظالمًا خلص من القتل.

فلما دخلت سارة على ذلك الجبار، ذهب يتناولها بيده، وفى رواية لمسلم.

«فقام إبراهيم إلى الصلاة، فلما دخلت عليه، أى على الملك، لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة، وكانت سيدتنا سارة، رضى الله عنها وأرضاها، تدعو الله أن لا يسلط عليها ذلك الكافر.

ففى رواية لأبى الزناد، عن الأعرج من الزيادة:

فقام إليها، فقامت تتوضأ وتصلى.

وفى هذه الرواية أيضًا: أنها قالت:

«اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجى إلا على زوجى، فلا تسلط على الكافر».

وعندما أخذ الجبار طلب إليها أن تدعو الله له ولا يضرها، ثم تناولها الثانية: فأخذ أشد من الأول، فطلب منها أن تدعو له، فدعت، فأطلق.

وفى رواية لمسلم:

«ودعا الذى جاء بها»، وقال:

«إنك لم تأتى بإنسان، إنما أتيتنى بشيطان».

وفى رواية الأعرج: ما أرسلتم إلى إلا شيطانًا، ثم أطلق سراحها وأخدمها هاجر.

فلما أتت سيدنا إبراهيم، عليه السلام، كان قائمًا يصلى، فأومأ بيده مهيم، أى مالخبر؟

فقالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره، وأخدم هاجر.

ويقال: إن الله كشف لإبراهيم، عليه السلام، فى رأى حال سارة مع الملك معاينة، وأنه لم يصل منها إلى شئ.

السيدة هاجر وسيدنا إسماعيل عليهما السلام

بعد أن أطلق الجبار سارة، أخدمها هاجر، أى وهبها لها لتخدمها، لأنه أعظمها أن تخدم نفسها.

وفى رواية مسلم:

«فأخرجها من أرخى وأعطها هاجر»، وهو اسم سريانى.

ويقال: إن أباها كان من ملوك القبط، وأنها من حفن قرية بمصر.

إتجه إبراهيم وسارة ومعهما هاجر، إلى أرض الشام، واستقروا بها، وفى خلال إقامتهم بالشام، رأت السيدة سارة أن حياة سيدنا إبراهيم، عليه السلام، دون ولد، حياة ينقصها عنصر من عناصر السعادة، نظراً لأن حياة الدعوة محتاجة إلى ولد يؤمن بها وبمبادئها، ويسير على قواعدها، ثم يحمل الرسالة، ويتابع الدعوة بعد أبيه، فعرضت على سيدنا إبراهيم، عليه السلام، أن يدخل بهاجر، وكانت سارة، فيما رسم

لها تفيكرها، ترى أنها ستبقى هى ربة البيت، وصاحبة الكلمة الأولى، وأن هاجر ستبقى خادمتها لا أكثر ولا أقل، ولن تكون مهمتها سوى إنجاب الولد، فوهبتها لإبراهيم، عليه السلام، لمجرد إنجاز هذه المهمة.

حملت هاجر، فشعرت سارة أن الوضع قد يتغير، وقد يؤدى إلى تحول سيدنا إبراهيم، عليه السلام، عنها، بسبب امتياز هاجر بما ينقص سارة.

شعرت سارة بالوضع الجديد، وأحست بما فى مسلك سيدنا إبراهيم، عليه السلام، من تغير نحو هاجر، فقد صار يعاملها كزوجة لها حقوق الزوجية كاملة، ومع أنه كان رفيقاً بسارة، محبًا لها، كريمًا معها، متودداً إليها، ومع ذلك كله دبت الغيرة فى قلب سارة، وكتمتها فى أول الأمر، لكنها لم تحتمل، فأخذت تبدى ما فى نفسها شيئًا فشيئًا، حتى لتقول الروايات:

أن هاجر اتخذت أثوابًا طويلة الذيل لتخفى آثارها عن سارة.

فلما ولدت هاجر، لم تحتمل سارة رؤية إسماعيل، عليه السلام وأمه، فأشارت على إبراهيم أن يسكن هاجر وولدها فى مكان آخر يتخيره.

روى الإمام البخارى، قال: حدثنى عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرازق، أخبرنا معمر، عن أيوب السختيانى، وكثير بن كثير، ابن عبد المطلب، بن أبى وداعة، يزيد أحدهما على الآخر، عن سعيد بن جبير، قال ابن عباس:

أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسماعيل، اتخذت منطقاً لتخفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، وضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت:

يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شئ؟

فقالت له: ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها.

فقال له: الله الذى أمرك بهذا؟

قال: نعم.

قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(١)

وجعلت أم اسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذ نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً، فم ترى أحداً، فهبطت الصفا، حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة، فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس:

قال النبى، ﷺ:

فذلك سعى الناس بينهما.

فلما أشرقت على المروة سمعت صوتاً، فقال:

صه، تريد نفسها، ثم تسمعت، فسمعت أيضاً، فقالت:

قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو أن بجناحه، حتى ظهر الماء، وجعلت تحوضه، تقول

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف.. قال ابن عباس: قال النبى، ﷺ :

يرحم الله أم اسماعيل، لو تركت زمزم، أو قال:

لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا.

قال: فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها الملك:

لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله يعنى هذا الغلام وأبوه، وأن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، وكانت، كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق الحداء، فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفا، فقالوا:

إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى، وما فيه ماء، فأرسلوا جربا أو جربين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم اسماعيل عند الماء، فقالوا.

أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟

فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء.

قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبى، ﷺ :

فألفى ذلك أم اسماعيل، وهى تحب الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم.

وشب الغلام وتعلم العربية منهم[١]، وأنفسهم، وأعجبهم حين شب[٢] فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم اسماعيل.

(١) يقول الحافظ بن حجر فى شرحه على البخارى:

«قوله وشب الغلام، أى اسماعيل، وفى حديث ابى جهم: ونشأ إسماعيل بين ولدانهم، (قوله وتعلم العربية منهم)، فيه إشعار بأن لسان أمه وابيه لم يكن عربيا، وفيه تضعيف لقول من روى انه اول من =

فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل إمرأته عنه فقالت:

= تكلم بالعربية، وقد وقع ذلك من حديث ابن عباس عند الحاكم فى المستدرك بلفظ: أول من نطق العربية إسماعيل، وروى الزبير بن بكار، فى النسب من حديث على، باسناد حسن، قال: أول من فتق الله لسانه بالعربية المبينة إسماعيل، وبهذا القيد يجمع بين الخبرين، فتكون أوليته فى ذلك بحسب الزيادة فى البيان، لا الأولية المطلقة، فتكون بعد تعلمه أمر العربية من برهم ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة، فنطق بها، ويشهد لهذا ما حكاه ابن هشام عن الشرقى بن قطامى، أن عربية اسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وحمير وجرهم، ويحتمل أن تكون الأولية فى الحديث مقيدة بإسماعيل بالنسبة إلى بقية إخوته من ولد إبراهيم، وقال ابن دريد فى كتاب الوشاح: أول من نطق بالعربية يعرب بن قحطان، ثم إسماعيل.

(٢) وأنفسهم وأعجبهم حين شب: أنفسهم: بفتح الفاء بلفظ أفعل التفضيل من النفاسة أبى محترث رغبتهم فيه وقال الكرمانى: أنفسهم، أى أعينهم فى مصاهرته لتعاسته عندهم، وقال ابن الأثير: أنفسهم عطفا على قوله تعلم العربية أى رغبتهم فيه إذ صار نفيسا عندهم، ولكن ما السبب الذى جعل سيدنا إسماعيل عليه السلام أنفسهم وأعجبهم حين شب؟ ولن نجد فى الاجابة عن السبب فى ذلك أعظم من شهادة الله سبحانه وتعالى، وثنائه عليه، ووصفه بالحلم والصبر، وصدق الوعد، والمحافظة على الصلاة، والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب، وما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب، يقول الله، سبحانه وتعالى: «فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعى قال: يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبت، أفعل ما تؤمر، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين». (آية ١٠١- ١٠٢ سورة الصفات).

لقد طاوع أباه على ما إليه دعاه، ووعده بأن سيصبر، فوفى بذلك، وصبر على ذلك،

قال تعالى: «واذكر فى الكتاب إسماعيل، إنه كان صادق الوعد، وكان رسولاً نبياً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضيا». (آية ٥٤، ٥٥ سورة مريم).

وقال تعالى: «واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار»: (الآيات ٤٥- ٤٨ سورة ص).

وقال تعالى: «وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين، وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين». (الآيات ٨٥- ٨٦ الأنبياء).

وقال تعالى: «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط». (٦٣ النساء)

وقال تعالى: «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط». (آية ١٢٦ سورة البقرة).

وقال تعالى: «أم تقولون إن ابراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أونصارى، قل أأنتم أعلم أم الله».(آية ١٤٠ سورة البقرة).

فذكر الله عنه كل صفة جميلة، وجعله نبيه ورسوله، وبرأه من كل ما نسبه إليه الجاهلون، وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه عباده المؤمنون، يقول الامام ابن كثير: «وكان إسماعيل عليه السلام رسولا إلى أهل =

خرج يبتغى لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت:

نحن بشر حال، نحن فى ضيق وشدة، فشكت إليه.

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له: يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال:

هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشنا، فأخبرته أنا فى جهد وشدة.

قال: فهل أوصاك بشئ؟

قالت: نعم، أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك.

قال: ذاك أبى، وقد أمرنى أن أفارقك، الحقى بأهلك، فطلقها، وتزوج امرأة منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ماشاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت:

خرج يبتغى لنا.

قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم.

فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل.

فقال: ما طعامكم؟

قالت: اللحم

قال: فما شرابكم.

قالت: الماء.

قال: اللهم بارك لهم فى اللحم والماء.

= تلك الناحية وما ولاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن، صلوات الله وسلامه عليه، ويقول أيضا: دفن إسماعيل نبى الله بالحجر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم مات مائة وسبعا وثلاثين سنة».

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال:

«شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل فى مكة، فأوحى الله إليه: أنى سأفتح لك باباً إلى الجنة إلى الموضع الذى تدفن فيه يجرى عليك روحها إلى يوم القيامة».

قال النبى، ﷺ :

ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه.

قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال:

فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟

قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألنى عنك، فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا، فأخبرته أنا بخير.

قال: فأوصاك بشئ؟

قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك.

قال: ذاك أبى، وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد.

قال: يا إسماعيل، إن الله أمرنى بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك ربك.

قال: وتعيننى؟

قال: وأعينك؟

قال: فان الله أمرني أن أبنى ها هنا بيتًا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها.

قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه، وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبل منك إنك أنت السميع العليم.

قصة الذبيح

قال الله، سبحانه وتعالى:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ:
يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ؟
قَالَ: يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ .
فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[١].

الذى نراه فى هذه الآيات أنها لم تتعرض بذكر لإسم الذبيح، وهل هو سيدنا إسماعيل عليه السلام، أم سيدنا إسحق عليه السلام.

وكذلك رواية البخارى، عن ابن عباس التى ذكرت حياة هاجر وإسماعيل عليهما السلام، والتى ذكرناها فيما سبق، لم تتعرض لإسم الذبيح، بل إنها لم تتعرض لقصة الذبح نفسها على الإطلاق، مما جعل الإمام ابن كثير يقول عن هذا الحديث:

أنه من كلام ابن عباس، وموشح برفع بعضه، وفى بعضه غرابة وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات.

(١) سورة الصافات، الآيات: من ٩٩- ١١٣.

وكل ذلك فى محاولته لإثبات أن الذبيح كان إسماعيل وليس إسحاق، بعد أن رأى بعض العلماء يستدلون بعدم ذكر الذبح فى هذا الحديث. على أن الذبيح كان سيدنا إسحاق عليه السلام.

ونحن نرى ألا يكون الرد بالنسبة للمستدلين بهذا الحديث على أن سيدنا إسحاق عليه السلام هو الذبيح الهجوم على الحديث نفسه، وخاصة أن الإمام الحافظ بن حجر قال عن هذا الحديث فى شرحه على البخارى:

وأما ابن عباس فإن كان لم يسمعه من النبى، ﷺ، فهو من مرسل الصحابة.

ونرى رأى الإمام الحافظ بن حجر فى شرحه على الحديث قال:

قال ابن التين: هذا يشعر بأن الذبيح إسحاق، لأن المأمور بذبحه كان عندما بلغ السعى، وقد قال فى هذا الحديث.

إن إبراهيم ترك إسماعيل رضيعاً وعاد إليه وهو متزوج، فلو كان هو المأمور بذبحه لذكر فى الحديث أنه عاد إليه فى خلال ذلك بين زمان الرضاع والتزويج، ونعقب بأنه ليس فى الحديث هذا المجئ، فيحتمل أن يكون جاء وأمر بالذبح ولم يذكر فى الحديث.

قلت، وقد جاء ذكر مجيئة بين الزمانين فى خبر آخر، ففى حديث أبى جهم:

كان إبراهيم يزور هاجر كل شهر على البراق، يغدو غدوة فيأتى مكة ثم يرجع، فيقيل فى منزله بالشام:

وروى الفاكهى من حديث على، باسناد حسن ونحوه:

أن إبراهيم كان يزور إسماعيل وأمه على البراق.

فعلى هذا فقوله: فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل، أى بعد مجيئة قبل ذلك مراراً والله أعلم[1].

---

(١) فتح البارى، جـ٧، ص٢١٢.

ولم يكن الأمر فقط متعلقًا بالحديث الذى رواه البخارى، بل إن علماء الإسلام ناقشوا الأمر من كل وجوهه، وأثبتوا بما لا يقبل الشك: أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل عليه السلام، وذلك فى ردهم على أهل الكتاب ومروجى الإسرائيليات، وإنما حمل هؤلاء على هذا، كما يقول الإمام ابن كثير:

وهو حسد العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله، ﷺ، وإسحاق والد يعقوب، وهو إسرائيل الذى ينتسبون إليه، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه، وهم قوم بهت، ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. أهـ.

ويقول ابن كثير فى موضع آخر:

أنه روى عن معاوية، وجاء عنه: أن رجلا قال لرسول الله، ﷺ:

يا ابن الذبيحين: فضحك رسول الله، ﷺ.

إن جمهور علماء المسلمين يقولون:

بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وأدلتهم فى ذلك تفوق الحصر، وسنختار هنا عدة أدلة، هى فى رأينا تمثل الفكرة العامة لدى علماء الأمة فى إثباتهم أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وليس إسحاق.

١ - أن قول أهل الكتاب بأن الذبيح هو إسحاق باطل بنص كتابهم، فإن كتابهم فيه أن الله أمر سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه بكره وفى لفظ: وحيده.

ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذى جعل أصحاب هذا القول يقولون: بأن الذبيح هو إسحاق، ما جاء فى التوراة: (اذبح ابنك إسحاق).

وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله:

«إذبح بكرك ووحيدك».

٢ - استدلوا من قوله:

فبشرناها بـإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، بأنه كـيف تقع البشارة بإسحاق، وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟

وهذا لا يكون، لأنه يناقض البشارة المتقدمة.

٣ - إن الله سبحـانه وتعالى، أجرى العادة البـشرية، أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين من بعده، وسـيدنا إبراهيم عليه السـلام، لما سأل ربه الولد ووهبه له، تعلقت شـعبة من قلبه بمحـبته، والله تعالـى قد اتخذه خليلا.

والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لايشارك بينه وبين غيـره فيـها، فلمـا أخذ الولد شـيئًا من حـب الوالد جاءت غيـرة الخلة لتنتزعـها من قلب الخليل، فأمـره بذبح المحبوب، فلما أقـدم على ذبحه وكانت محـبة الله أعظم عنده من محبة الولد- خلـصت الخلة حينئذ من شبهة المشاركة، فنسج الأمر وفدى الذبيح.

٤ - إن سـارة، امراة الخـليل، عليه السلام، غارت مـن هاجر وابنـها أشـد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولد إسماعيل وأحبه أبوه، اشتدت غيرة سارة، فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها، ليبعد عن سارة مرارة الغيرة، وهذه من رحمته ورأفته، فكيف يأمره سبحانه أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله؟ هذا مع رحمة الله لها، بل حكمـته البالغة اقتضت أن يأمر بـذبح ولد السرية، فـحينئـذ يرق قلب سارة وتتـبدل قـسوة الغـيرة رحمة، ويظهر لها بركـة هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتا هذه وابنها منهم، ويرى عبـاده لطفه بعد الشدة، وأن عاقبـة أمر هاجر وابنها

على العبد، والوحدة، والغربة، والتسليم إلى ذبح الولد، آلت إلى جعل آثارهما ومواطئ أقدامهما مناسك لعبادة المؤمنين، وهذا سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه، وأن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره.

هذه الأدلة، تقريبًا، هى معظم ما دارت عليه أقوال العلماء فى ردهم على من قال: أن الذبيح هو سيدنا إسحق عليه السلام.

ونعود مرة أخرى إلى موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام مع سيدنا إسماعيل عليه السلام، عندما أراد ذبحه تنفيذاً لإرادة الله تعالى:

ونعود إلى الماضى من جديد، إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما قال:

«إنى ذاهب إلى ربى سيهدين».

فغادر العراق متجها إلى الشام، ولم يكن سيدنا إبراهيم عليه السلام، قد أنجب أولادا.

لقد شعر بالحاجة إلى وريث للدعوة معين فيها، فاتجه إلى الله فى تبتل وضراعة وخشوع قائلا:

«رب هب لى من الصالحين».

الصالحين للدعوة، والصالحين للحياة، والصالحين لله.

فأجاب الله سبحانه وتعالى قائلا:

«فبشرناه بغلام حليم».

وما من شك فى ان الحلم من الأسس الأصيلة للنجاح فى الدعوة.

أتى هذا الغلام على كبر من سن والده، وهو بكره ووحيده، الذى ليس له غيره.

يقول الإمام ابن كثير: «إن إسماعيل وُلِدَ وعمر سيدنا إبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة».

وكان الله قد منح الغلام: عقلا وذكاء، ونجابة، كان بهم قرة عين والديه، وكان حبهما له كبيراً.

وأخذ الغلام يشب وينمو، وبلغ السن التى أصبح يسعى فيها لمصالحه.

(فلما بلغ معه السعى) قال مجاهد:

«فلما بلغ معه السعى»: أى شب وارتحل، وأطلق ما يفعله أبوه من السعى والعمل.

فلما كان هذا، رأى سيدنا إبراهيم عليه السلام، فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده إسماعيل عليه السلام .

وفى الحديث عن ابن عباس مرفوعاً: «رؤيا الأنبياء وحى».

وكان هذا اختبار من الله عز وجل، لخليله فى أن يذبح ولده العزيز عليه، الذى جاء على كبر، وقد طعن فى السن.

امتثل سيدنا إبراهيم لأمر الله سبحانه وتعالى، واستسلم لقضاء الله، ولم يعارض أو يحتج أو يناقض، بل ذهب على الفور إلى ابنه إسماعيل عليه السلام وعرض عليه الأمر.

وقال: يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك، فانظر ماذا ترى؟

لقد عرض ذلك الأمر على ولده، ليكون أطيب لقلبه، وأهون عليه من أن يأخذه قسراً، وأيضاً، ليأتى إبنه رغبة وطاعة، فيكون له الأجر والثواب.

وعلى كل، فإن الأمر لم يكن تخييراً، ولو تردد سيدنا إسماعيل لأخذه أبوه قهراً.

يقول الإمام الرازى:

«الحكمة فى مشاورة الابن فى هذا الباب، أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره فى طاعة الله، فتكون فيه قرة عين لسيدنا إبراهيم

عليه السـلام، حيث يراه، قد بلغ فى الحلم إلـى هذا الحد العظيم، وفى الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية. أ.هـ.»

عندما عرض سـيدنا إبراهيم عليه السلام الأمر علـى ولده امتثل الابن فى الحال لأمر أبيه، فقد كان يعرف أن أباه لا يـسير فى حياته إلا بتوجيه إلهى، وأن الشيطان لا سبيل له على أبيه.

لقد أجبا فى الحال:

﴿يا أبت، أفعل ما تؤمر، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾.

امتثل الابن لأمر الله، وكان من الصابرين.

عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال:

قال الابن: يا أبت أشدد رباطى كى لا أضطرب، واكفف ثيابك حتى لا ينتـضح عليهـا من دمى شئ، فـينقص أجرى، وتراه أمى فـتحـزن، واستحد شفـرتك، وأسرع بها على حلقى ليكون أهون على، وإذا أتيت أمى فاقرأ علـيها السلام منى، وإن رأيت أن ترد عليـها قميصـى فافعل، فانه عسى أن يكون أسلى لها عنى.

قال إبراهيم عليه السلام:

«نعم العون أنت يا بنى على أمر الله». أ.هـ.

وفى أثناء ذلك حاول الشيطان أن يثنيهما من عزمهما، فحاول أولا مع سيـدنا إبراهيم عليه السـلام، موحيـاً بأن الأمر ليس سـوى رؤيا، وأنها أضـغاث أحـلام، ولكن سيـدنا إبراهيم عليـه السلام لم يسـتسلم لهـذه الوساوس، ولم يكن للشـيطان عليه سـبيل، ورجم سيـدنا إبراهيم عليه السلام الشيطان بسبع حصيات، ورده خاسئًا مدحوراً، ولكن الشيطان لم يقتنع بهذه الهـزيمة، بل حاول مرة أخرى، مع الإبن، مـوسوسًا بأن هذه رؤيا لا أكـثـر ولا أقل، أيذبحـه أبوه لمجـرد رؤية، وأحس إسـمـاعـيل بالمحاولة، فرجم الشيطان بسبع حصيات، ورغم ذلك لم ييأس الشيطان،

وذهب إلى الأم موسوسًا لها أن تستنقذ ابنها قبل فوات الأوان، لأن أباه يريد ذبحه، ولكن الأم رجمته، لثقتها بأن إبراهيم عليه السلام، موحى إليه بذلك.

رغم تلك المحاولات كلها استسلم سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا إسماعيل عليه السلام لأمر الله.

(فلما أسلما وتله للجبين)

أسلما: أى استسلما لأمر الله، وعزما على ذلك.

وقيل: هذا من المقدم والمؤخر، والمعنى «وتله للجبين».

أى ألقاه على وجهه.

قيل: أراد أن يذبحه من قفاه، لئلا يشاهده فى حال ذبحه.

قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك.

وقيل: بل أضجعه كما تضجع الذبائح، وبقى طرف جبينه لا صقا بالأرض.

«وأسلما»: أى سمى سيدنا إبراهيم عليه السلام وكبر، وتشهد الولد للموت.

قال السدى وغيره: أمرَّ السكين على حلقه فلم تقطع شيئًا:

ويقالُ جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس.

عند ذلك كله، وفى أحرج لحظات الحياة، وفى لحظة الإيمان الكامل الذى ليس له نظير، عند ذلك كله: نودى سيدنا إبراهيم عليه السلام من الله عز وجل:

﴿يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا)!.

«إنا كذلك نجزى المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم».

لقد حصل المقصود من اختيـار سيدنا إبراهيم، ومن إقامته الدليل على طاعته، وأنه مستسلم لربه استسلاما كاملا، وأنه منفذ لأوامـره جميعًا، حتى فـى ذبح أعز أبنائه عليـه، ابنه البكر الذى جاءه بعـد سنين طويلة، وانتظار كبير، ولهذا قال تعالى:

﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾.

أى الاختيار الظاهر المبين، الذى كانت نتيجته فداء ابنه بذبح عظيم.

والمشهـور، عند الجمـهور، أنه كـبش أبيض أعين أقرن، رآه مـربوطًا بسمرة فى ثبير.

قال الثورى، عن عبد الله بن عثمان بن خـثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال:

كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفا.

وقال سعيد بن جبير: كـان يرتع فى الجنة حتى تشقق عنه ثبير، وكان عليه عهن أحمر.

مولد سيدنا إسحاق عليه السلام

كان من نتيجة استسلام سـيدنا إبراهيم عليه السلام، لأمر الله سبحانه وتعالى، بذبح ابنه إسماعيل عليه السـلام، وإقباله على تنفيذ هذا الأمر، رغم أنها محنة واختبار مؤلم.

كان من نـتيجـة ذلك أن الله سبـحانه وتعـالى فدى إسـماعيل عـليه السلام، بذبح عظيم، رغم ذلـك أيضاً، فإن الله سبـحانه وتعالى حـمد لسيدنا إبراهيم عليه السلام موقفه هذا، فبشره بإسحق نبيا من الصالحين، وبارك عليه وعلى إسحق.

ولـم يكتف الله سـبحانه وتعـالى بتلك البشـرى لسيدنا إبراهـيم عليه السلام، بل إن القـرآن الكريم، يحدثنا مـرة أخرى عن هذه البـشرى فى

موضع آخر، عندما اقترب موعد تحقيقها، بل يزيد عليها، فبعد أن بشر سيدنا إبراهيم عليه السلام، وسيدتنا سارة بميلاد إسحق، يبشرهما أيضًا أنه من وراء إسحق يعقوب، مما دعى الإمام ابن كثير أن يأخذ من ذلك دليلا على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحق، ومن بعده بولد ولده يعقوب، أى يولد فى حياتهما، فتقر أعينهما به كما قرت بوالده.

ولو لم يرد هذا، لم يكن لذكر يعقوب والتنصيص عليه من دون سائر نسل إسحق فائدة.

ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بولده، كما سرا بمولد أبيه من قبله. قال تعالى:

﴿ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا﴾.

وقال تعالى:

﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب﴾.

على أنه يحسن بنا أن نترك القرآن الكريم، يحدثنا عن هذه القصة وكيف تمت؟

قال الله تعالى:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[1].

ويقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ

(١) الصافات الآيات: ١١٢- ١١٣.

وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[1].

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾[3].

تحكى هذه الآيات: أن بعضا من الملائكة قدموا على سيدنا إبراهيم عليه السلام، واختلف المفسرون فى عددهم وأسمائهم، فبعضهم يقول: كانوا ثلاثة: «جبريل، وميكائيل، وإسرافيل».

وقال البعض الآخر: كانوا تسعة، وقال آخرون: كانوا اثنىّ عشر ملكاً، وبعضهم يقول: كان جبريل ومعه سبعة أملاك، وقال آخرون: أحد عشر ملكا على صور الغلمان الحسان الوجوه.

---

(١) هود، الآيات: من ٦٩- ٧٣.

(٢) سورة الحجر الآيات: من ٥١- ٥٦.

(٣) سورة الذاريات، الآيات: من ٢٤- ٣٠.

قدم هؤلاء الملائكة على سيدنا إبراهيم عليه السلام، فحسبهم أضيافا أول الأمر، فعاملهم معاملة الضيوف، شوى لهم عجلا سمينا من خيار بقره، فلما قربه إليهم لم ير لهم أى إقبال على الطعام، وليست لهم همة إلى الأكل بالكلية، فنكرهم سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأنكر حالهم، لا متناعهم عن الطعام، وأوجس منهم خيفة، لأنه لم يكن يعرف حتى ذلك الوقت أنهم ملائكة، ولو كان قد عرف لما أوجس منهم خيفة، ولما قدم إليهم أى طعام، لعلمه أن الملائكة لا يأكلون، ولكن الملائكة سرعان ما طمأنوه بقولهم له:

«لا تخف، إنا أرسلنا إلى قوم لوط»، «لندمر عليهم».

وكانت امرأته قائمة على رؤوس الأضياف، كما هو عادة الناس فى تلك الزمان، (فضحكت)، وأكثر المفسرين على أنه الضحك المعروف.

واختلفوا فى سبب ضحكها، فقال بعضهم:

(لما قرب سيدنا إبراهيم عليه السلام الطعام إلى أضيافه فلم يأكلوا، خاف سيدنا إبراهيم عليه السلام منهم، فقال: ألا تأكلون؟

فقالوا: إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن.

قال: فإن له ثمنا.

قالوا وما ثمنه؟

قال تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره.

فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا. فلما رأى سيدنا إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه، ضحكت سارة، وقالت: يا عجبا لأضيافنا، نخدمهم بأنفسنا تكريماً، وهم لا يأكلون طعامنا.

وقال آخرون: ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب عنهم، وقال بعضهم: ضحكت من خوف سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو بين خدمه وحشمه.

وقيل: ضحكت من زوال الخوف عنها وعن سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وقيل: ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولدا، على كبر سنها وسن زوجها. فعلى هذا يكون فى الآية تقديم وتأخير، تقديره فبشرناها باسحق، فضحكت، يعنى تعجباً من ذلك.

وعلى كل: فإن السيدة سارة لما ضحكت ضحكت استبشارا.

قال الله تعالى:

﴿فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب﴾؛ فلما بشرت بذلك، قال القرآن متحدثاً عن شعورها:

﴿فأقبلت امرأته فى صرة﴾ أى فى صرخة.

﴿فصكت وجهها﴾، كما يفعل النساء عند التعجب، وقالت:

﴿يا ويلتى أألد وأنا عجوز، وهذا بعلى شيخا؟﴾ أى كيف يلد مثلى وأنا كبيرة وسقيم أيضاً، وهذا زوجى شيخا؟

تعجبت من وجود ولد، والحالة هذه ، ولهذا قالت:

﴿إن هذا لشئ عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد﴾.

وكذلك تعجب سيدنا إبراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتا لهما وفرحاً بها.

«قال: أبشر تمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون؟ قالوا: بشرناك بالحق، فلا تكن من القانطين».

أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه، فبشروهما «بغلام عليم»: إسحق أخو إسماعيل.

رد شبهة حول رحلة سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز

قبل أن نتحدث عن بناء سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام للكعبة، لابد لنا من مقدمة نتعرض فيها لموقف هؤلاء الذين ينكرون ذهاب سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا إسماعيل إلى مكة أصلا، ومن باب أولى ينكرون بناءهما للكعبة.

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار، فى كتابه قصص الأنبياء:

«يريد بعض الناس أن ينفى العرب عن ابراهيم وإسماعيل، فيتذرع إلى ذلك بنفى وجود سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل تاريخياً، بمعنى: أنه لم يكن فى ذلك الوقت الذى يدعى لهما من يدون التاريخ، ويسطر أحواله.

ومعلوم أن عدم وجود مؤرخ، يكتب عن سيدنا إبراهيم وعن سيدنا إسماعيل، لا ينفى أنهما وردا فى سجل الحياة، فإن الجد الذى يكمل العشرة من أجدادى، لم أعلم اسمه، ولم يسجله تاريخ، فهل معنى ذلك: أن ليس لى جد عاشر؟

وعلى النافى أن يثبت أن حوادث عصرهما مسجلة -كبيرها وصغيرها- بيد مؤرخين كانوا فى تلك الأمكنة، فتركها محدث للريبة، على أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا إسماعيل، قدورد الخبر عنهما متواتر، والتواتر حجة قطعية.

يقولون: «إن وجود سيدنا إبراهيم عليه السلام، وسيدنا إسماعيل عليه السلام، إنما: هو أمر اخترعه اليهود بعد الهجرة، ليتقربوا إلى العرب المسلمين».

وهذا القول حجة داحضة، لأنه يقتضى، أن ذكر إسماعيل، وأنه أبو العرب المستعربة، شئ اخترع زمن البعثة، بعد الهجرة، اخترعه اليهود ليوجدوا صلة بينهم وبين العرب، فى حين أن مسألة إسماعيل موجودة فى سفر التكوين من أسفار التوراة، وقد ترجم فى نحو سنة ٢٨٠ قبل الميلاد من العبرية إلى اليونانية فى عصر بطليموس فيلادلف، وهو بطليموس الثانى، فى الترجمة المشهورة بالسبعينية، التى قام على ترجمتها بالاسكندرية سبعون حبراً من أحبار اليهود، وذلك قبل هجرة محمد، ﷺ بتسعة قرون، وهو دليل مؤرخ معروف فى التاريخ، وتلك دعوى لا دليل عليها.

رجعوا بعد ذلك يقولون:

إن إبراهيم لم يبن البيت، وإسماعيل لم يكن، ولم يوجد بمكة، وأنه ربما كان هناك بلدة أخرى إسمها بكة، خارج بلاد العرب، وهى غير مكة، وجد بها ذلك البيت الذى أخبر الله أنه أول بيت وضع للناس، وقد أعياهم أن يجدوا ذلك.

ومعلوم: أن لفظ مكة عربى، والعربية إحدى اللغات السامية، وقد قال: جورجى زيدان بك فى كتابه «العرب قبل الإسلام»:

إن لفظ (بيك) معناه البيت، وعزا ذلك إلى لغة سامية.

ومعلوم أن اللغة العربية: فيها إبدال الباء ميم وبالعكس. ومن القبائل التى تفعل ذلك مازن، فيقولون فى بكر: مكر، وفى مكان: بكان. وعندنا فى بلاد الصعيد وغيرها أثر من ذلك إلى اليوم.

وفى بلاد العرب كذلك، كما نص عليها صديقنا البحاثة الرحالة: محمد لبيب البتنونى بك، فى رحلته الحجازية، فمكة هى عين بكة، ومعناها البيت، أطلق على ما جاوره توسعاً. أ.هـ.

ويقول الأستاذ عباس محمــود العقاد، معلقاً على الدعوى بعدم ذهاب سيدنا إبراهيم إلى الحجاز بقوله:

«أيسر ما يستــوحيه طالب الحقيقة أن يتــساءل كيف يكون هذا الجنوب موصداً فى وجه إبراهيم؟

وكيف يطــوف الأقطار جميــعاً، ولا ينفــتح له الباب الذى لا مــوصد عليه؟

إن كان أحد الطريقين مــفتوحاً أمامــه، فليس هو طريق بيت المقدس، بل طريق الحجاز، وفى هذا الطريق سلك الأنبياء.

وذكرت المصــادر الإسرائيلية منهم: من بلغ مــدين، ذكرت منهم: من لعله أقام فى نجد، أو لعله أقام وراءها من البلاد العربية.

ولم تذكــر المصادر الإسرائيلــية صالحــاً، ولاهوداً، ولاذا الكفل، ولا غيرهم من الأنبياء.

فموضع التساؤل هو السكوت عن هذه الناحية، وليس هو الذكر الذى توحيه البداهة، ويوحيه الواقع، ويوحيه المعلوم من أطوار البعثات الدينية والرسالات النبوية.

ويقول فى موضع آخر:

«إنما العجب من ذوى الدعــوى باسم البحث العلمى أن ينتظروا الخــبر ممن يقضى على دعواهم كلها إذا رووه، ويثبت دعواهم كلها إلى التفوه، ومن الذى يكتم مسير إبراهيم إلى الجنوب، إن لم يكتــمه الذين ينقضون دعواهم كلها بإثبات ذلك السير؟».

ويقول أيضاً:

«ونفترض أن إبراهيم لم يصل إلى الحجاز، لأن المصادر الإسرائيلية لم تذكر رحلته إلى الحجاز، ووقفت بها عند بلاد آدوم.

ونفترض أن هذا سبب كاف لنفى الرحلة من الوجهة العلمية، فهذه الكعبة قائمة، تحتاج إلى بان يبنيها، فمن الذى بناها؟

إن روايات هؤلاء القوم الأميين -قوم مكة فى الجاهلية- تذكر لنا أن مكة عمرت قديماً بأناس من اليمن، ثم بأناس من النبط، وكل معلوم عن أحوال الحجاز يعزز هذه الروايات، فإن أقام مقيم فى مكة، فسبيله أن يأتى إلى وسط الحجاز من الطرفين، وهما طرف اليمن فى الجنوب، وطرف النبط فى الشمال. لكن أهل اليمن -فى اليمن- لا يخلقون لغير بلادهم قداسة، تصفى على شأنها بين الشعوب العربية، وقد حدث منهم غير مرة: أنهم نظروا إلى الكعبة نظرتهم إل منافس خطير، فهموا بهدمها وتحويل الحجاج إلى معبد يقوم عند العرب مقامها.

أما النبط فى الشمال: فمكة هى طريقهم، ولا مزاحمة عليها منهم، وآثارها الباقية فى البتراء تنطق بالمشابهة بينهم وبين الحجازيين: فى العبادة واللغة، والسلالة.

والنسابون من الحجاز يقولون:

إنهم نبط، وأنهم أخذوا الأصنام من النبط.

وجميع المصادر بعد ذلك تقول.

أن النبط هم ذرية بنات ابن إسماعيل.

ومن النظر العلمى: أن يجتهد الباحث هذا الاجتهاد وأن يلتفت إلى كل باب من هذه الأبواب، لأن الإلتفات إليها واجب عليه، ومن التقصير أن يكون أمامه باب واحد يبحث فيه عن الحقيقة التاريخية ثم يهمله، ليستخرج منه غاية ما يخرجه من الثبوت، أو من الفرض والاحتمال.

أما الأمر الذى لا يتفق مع العلم ولا مع الواقع، فهو القول بأن إبراهيم لم يذهب إلى الحجاز، لأن المصادر الإسرائيلية خلو من هذا الخبر، ثم يكتفى القائل بقوله، فلا يضع لنا بديلا عنه أولى بالأخذ به».

ثم بذكر الأستاذ العقاد العديد من الأدلة الأخرى، ثم ينتهى إلى القول:

«وقد جاء الإسلام مثبتا رحلة إبراهيم إلى الحجاز ونسبتها ولا شك بعد أن ثبتت مع الزمن المتطاول، لأن انتساب أناس من العرب إلى إبراهيم قد سبق فيه التاريخ كل اختراع مفروض، ولو تمهل به التاريخ المتواتر حتى يجوز الاختراع فيه لا نكرت إسرائيل انتساب العرب إلى إبراهيم، وأنكر العرب أنهم أبناء إبراهيم من جارية مطرودة، وليس هذا غاية ما يدعيه المنتسب عند الاختراع[1]». أ. هـ.

والواقع أننى عندما اخترت هذين الرأيين للرد على دعاوى المستشرقين ومن تابعهم من الملحدين، إنما اخترتهما لأنهما يحكمان العقل والمنطق والتاريخ، مما يجعلنا نكتفى بهما عن كثير من الأدلة الأخرى لنمضى مع سيدنا إبراهيم عليه السلام، فى رحلته لبناء الكعبة، والله الموفق.

---

(١) من كتاب إبراهيم أبو الأنبياء، للأستاذ عباس محمود العقاد.

بناء الكعبة

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[١].

ومما يشرح هذه الآيات، قول رسول الله ﷺ، فيما أخرجه الشيخان: عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال:

سئل رسول الله، ﷺ، عن أول بيت وضع للناس؟ فقال: المسجد الحرام، ثم بيت المقدس.

فقيل: كم بينهما؟

فقال: أربعون سنة.

ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه.

وأيضاً كما فى حديث عثمان، وأبى جهم، فيما رواه الحافظ بن حجر، فى شرحه على حديث: رحلة إبراهيم بهاجر، وإسماعيل، إلى مكة يقول:

وفى حديث عثمان، وأبى جهم:

« فبلغ إبراهيم من الأساس، أساس آدم، وجعل طوله فى السماء تسعة أذرع، وعرضه فى الأرض يعنى دوره، ثلاثين ذراعاً، وكان ذلك بذراعهم».

زاد أبوجهم: وأدخل الحجر فى البيت، وكان قبل ذلك زربا لغنم إسماعيل، وإنما بناه بحجارة بعضها على بعض، ولم يجعل له

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٦، ٩٧.

سقـفا،وجعل له بابا ، وحـفر له بئراً عند بابه ، وخـزانة للبيت ، يلقى فيها مايهدى للبيت .

وفى حديثه أيضاً :

أن الله أوحى إلي إبراهيم أن أتبع السكينة، فحلقت على موضع البيت كأنهاسحابة ،فحفرا بريدان أساس آدم الأول .

نأخذ من هذه الأدلة : أن البـيت الحرام كان موجـوداً قبل بناء إبراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام له ، وأنـهما بنوه على قواعد كانت موجودة قبل ذلك ، هى قواعد . سيدنا آدم عليه السلام .

إذن فمعنى الآية القائلة :

« إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة ».

المقصود بها . البيت الحرام، وأنه وضع للعبادة .

ومما يزيدنا تأكـيداً من أن أساس البـيت وقواعده كـانت موجـودة قبل ذلك، وأنها من زمن آدم علـيه السلام : مـا ذكره الحافظ بن حـجر فى شرحه على حـديث رحلة إبراهيم وإسماعيل وهاجـر إلى مكة فى الجزء الخاص ببناء الكعبة يقول :

(وفى رواية مـجـاهد عن ابن أبى حـاتم : «أن القواعـد كـانت فى الأرض السابعة»).

ومن طريق سعـيد بن جـبير ، عن ابن عـباس : رفع القـواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك .

وفى رواية أحمـد ، عن عبـد الرازق ، عن معمـر، عن أيوب، عن سعيد ، عن ابن عباس :

(القواعد التى رفعها إبراهيم كانت قواعد البيت قبل ذلك) .

ومن طريق عطاء قال: قال آدم: يارب إنى لا أسمع أصوات الملائكة.

قال : ابنِ لى بيتاً ثم أحفف به ، كما رأيت الملائكة تحف ببيتى الذى فى السماء .

ونأتى الآن إلى بناء سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام للكعبة، يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الحج :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾.

أمر الله سبحانه وتعالى ، سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ببناء الكعبة ، وذكر تعالى أنه بوأ لإبراهيم ، عليه السلام ، مكان البيت ، أى أرشده إليه وأذن له فى بنائه ، والمكان الذى طلب الله سبحانه وتعالى ، من سيدنا إبراهيم ، عليه السلام ، أن يبنى فيه الكعبة ، هو مكة المكرمة وهى البلد التي يقيم بها إسماعيل عليه السلام ، فامتثل سيدنا إبراهيم ، عليه السلام ، لأمر الله سبحانه وتعالى ، وذهب إلى مكة ، فجاء إليها وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد ، قال :

يا اسماعيل ، إن الله أمرنى بأمر ؟

قال : فاصنع ما أمرك ربك .

قال : وتعيننى ؟

قال : وأعينك .

قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ها هنا بيتا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها .

قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، وكان عمر إبراهيم إذ ذاك: مائة سنة ، وعمر إسماعيل ثلاثين سنة ، وجعل إسماعيل يأتى بالحجارة

وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان :

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾.

ولما كان البناء قد ارتفع أثناء بنائه ، وضعف سيدنا إبراهيم ، عليه السلام ، عن نقل الحجارة ، كان يقوم علي المقام يبنى عليه ويرفعه له إسماعيل عليه السلام ،فلما بلغ الموضع الذى فيه الركن ، وضعه يومئذ موضعه ، وأخذ المقام ،فجعله لاصقاً بالبيت .

فلما فرغ إبراهيم ، عليه السلام ، من بناء الكعبة ، جاء جبريل فأراه المناسك كلها ، ثم قام إبراهيم عليه السلام إلى المقام فقال :

(يا أيها الناس ، أجيبوا ربكم)

وروى الفاكهى، بإسناد صحيح من طريق مجاهد ، عن ابن عباس، قال:

« قام إبراهيم على الحجر فقال »:

يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج ، فأسمع من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من آمن ومن كان سيؤمن فى علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة :

لبيك اللهم لبيك .

ويقول الحافظ بن حجر ، فى شرحه على حديث رحلة إبراهيم وإسماعيل وهاجر إلى الحجاز ، فى الجزء الخاص ببناء الكعبة ، يقول :

وفى حديث أبى جهم : « ذهب إسماعيل إلى الوادى يطلب حجراً ، فنزل جبريل بالحجر الأسود ، وقد كان رفع إلى السماء حين غرقت الأرض» .

فلما جاء إسماعيل فرأى الحجر الأسود ، قال :

« من أين هذا ؟ من جاءك به؟».

قال إبراهيم : من لم يكلنى إليك ولا إلى حجرك .

وروى الفاكهى ، من طريق أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن سعيد بن عباس ، قال :

والله ما بنياه بقصة ولا مدر ، ولا كان لهما من السعة والأعوان ما يسقفانه .

ومن حديث على : كان إبراهيم يبنى كل يوم سافا .

ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عنده ، وعند ابن أبى حاتم: أنه كان : بناه من خمسة أجبل :

من حراء وثبيرولبنان وجبل الطور وجبل الخمر[1].

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [2]

---

(١) انظر فتح البارى.

(٢) سورة البقرة، الأيات: من ١٢٥- ١٢٩.

نأخذ من هذه الآيات: أن الله، سبحانه وتعالى ،جعل البيت مثابة للناس ، أى جعله الله ، سبحانه وتعالى، جعلا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ، ولا تقضى منه نهما، ولو ترددت إليه كل عام، ويصفه تعالى بأنه آمنا فمن دخله آمن، ولو كان فعل ما فعل، ثم دخله كان آمنا .

وكان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه ، فلا يعرض له ، كما وصف فى سورة المائدة بقوله تعالى :

﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس ﴾.

أى يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء .

وطلب الله سبحانه وتعالى منا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى، واختلف المفسرون فى مقام إبراهيم :

فعن ابن عباس أن مقام إبراهيم الحج كله .

وعن سفيان الثورى ، عن عبد الله بن مسلم ، عن سعيد بن جبير قال : الحجر مقام إبراهيم نبى الله ، قد جعله الله رحمة ، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة .

وقال السدى: «المقام: الحجر الذى وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتي غسلت رأسه .

ولكن الإمام ابن كثير جاء بكثير من الأدلة التى تثبت : أن المراد بالمقام، إنما هو الحجر الذى كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة .

ومن هذه الأدلة يقول :

وقال ابن جريج : أخبرنى جعفر بن محمد، عن أبيه ، عن جابر ، أن رسول الله ، ﷺ ، رمل ثلاثة أشواط ، ومشى أربعا ، حتى إذ فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين ، ثم قرأ :

« واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » .

وقال ابن جرير : حدثنا يوسف بن سلمان ، أخبرنا حاتم بن إسماعيل ، أخبرنا جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جابر ، قال :

(استلم رسول الله ، ﷺ ، الركن فرمل ثلاثاً ، ومشى أربعاً ، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام ، فقرأ :

« واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » .

فجعل المقام بينه وبين البيت ، فصلى ركعتين .

وروى البخارى بسنده ، عن عمرو بن دينار ، قال : سمعت ابن عمر يقول : قدم رسول الله ، ﷺ ، فطاف بالبيت سبعاً ، وصلى خلف المقام ركعتين .

وفى هذه الآيات أيضاً أن الله ، سبحانه وتعالى ، أمر إبراهيم وإسماعيل ، أن يطهرا بيته من الأذى والنجس ، ومن الأوثان والرفث وقول الزور والرجس ، للطائفين بالبيت والغريب فيه ، والعاكفين ، أى المقيمين به ، والركع السجود ، أى المصلين به .

وملخص ذلك كله :

أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليمها السلام أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده ، لا شريك له ، للطائفين والعاكفين عنده ، والمصلين إليه من الركع السجود .

ثم يطلب إبراهيم من ربه أن يجعل مكة بلدا آمناً ، ويرزق أهله من الثمرات ، ومما يشرح ذلك قول رسول الله ﷺ ، فيما رواه ابن جرير الطبرى ، عن ابن بشار ، عن عبد الرحمن بن مهدى، عن سفيان ، عن الزبير ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ، ﷺ :

« إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه ، وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يصاد صيدها ، ولا يقطع عضاضها » .

وفى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة ،رضى الله عنه، قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمرجاءوا به إلى رسول الله ﷺ ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ ، قال :

« اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ،وبارك لنا فى مدنا .

اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، وإنى عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وإنى أدعوك للمدينة ، بمثل ما دعاك لمكة ، ومثله معه . ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه الثمر .

وروي مسلم أن رسول الله ﷺ ، قال :

« إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها ، وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ، وإنى دعوت فى صاعها ومدها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة .

ثم تحدثنا الآيات عن رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت وهما يدعوان :

« ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ».

لقد كانا يعملان عملا لله ، سبحانه وتعالى، ومع ذلك هما مشفقان ألايتقبل منهما ، وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص فى قوله :

﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ .

دين سيدنا إبراهيم عليه السلام

كان سيدنا إبراهيم ، عليه السلام ، من أعظم الأنبياء ، إنه واحد من أولى العزم منهم ، لقد كان شخصية عظيمة فى كل شيء ، حتى إننا عندما نتتبع صفاته التى يصفه بها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم ، نكاد نذهل من عظمة تلك الشخصية ، وحقاً نجد أن وصف الله سبحانه وتعالى له فى القرآن الكريم بقوله :

« إن إبراهيم كان أمة » : نجد حقاً أن سيدنا إبراهيم ، عليه السلام ، ينطبق عليه هذا الوصف بكل معانيه ، لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، كان ، يمثل الرجل الكامل ، هذه الصفة صفة الرجل الكامل .

وأيضا لكونه أبو الأنبياء ، كل هذا جعل أهل الأديان الأخرى يحاولون ضمه إليهم ، فكل فريق منهم يحاول جعله من أهل دينه، بل ويثبت ذلك عنده فى كتبه :

فاليهود يعتبرونه يهوديا .

والنصارى يعتبرونه نصرانيا .

والمشركون يعتبرونه مثلهم .

بل حتى الصابئة يعتبرونه على دينهم .

بل وأخذ أصحاب تلك الملل جميعاً يتنازعون عليه وينكرون اتصاله بالملل الأخرى.

بل إننا نجد فى العصر الحديث كثيراً من أهل الديانات الأخرى ، ممن ينكرون اتصال سيدنا إبراهيم بالعرب ، أو بالإسلام ، أوحتى ذهابه إلي مكة المكرمة ، وبناءه البيت الحرام .

كل ذلك أدى إلى أن القرآن الكريم فى كثير من المناسبات، يبرز دائماً أن سيدنا إبراهيم ، عليه السلام، كان حنيفاً مسلما ، موحداً لله سبحانه

وتعالى ، وأن عقيدتا (التوحيد والإسلام) كانتا أساس دعوته عليه السلام .

نجد ذلك في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[١]

وفي قوله سبحانه :

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢]

كل هذه الآيات ، وغيرها كثير ، تحدد في صورة لا لبس فيها أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلما ، موحداً لله سبحانه وتعالى، على أن الآيات التي حددت ذلك بصورة قاطعة ، وبتوضيح لا لبس فيه ، مع إقامة الحجة والبرهان على إسلام سيدنا إبراهيم عليه

(١) سورة البقرة، الآيات: من ١٢٧- ١٣٢ .

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٠ .

السلام، هى الآيات التى ذكرت فى سورة آل عـمران ، ونذكرها إن شاء الله تعالى بتفسيرها :

«يا أهل الكتـاب لماتحـاجـون فى إبراهـيم ، أى : يا أهل الكتـاب لما تتنازعون وتتجادلون فى إبراهيم ، ويـدعى كل منكم أنه عليه السلام كان على دينه؟» .

أخـرج ابن إسـحـاق ، وابن جـرير ، عن ابن عـبـاس ، رضى الله عنهما، قال :

« اجـتمـعت نصارى نجـران وأحبـار يهود عند رسـول الله ، ﷺ . فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار :

ما كان إبراهيم إلايهوديا .

وقالت النصارى :

ما كان إبراهيم إلانصرانياً . فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية :

﴿وما أنزلت التوراة﴾ على موسى عليه السلام ، والإنجيل على عيسى عليه السـلام ، ﴿ إلا من بعده﴾ ، حيث كـان بينه وبين موسى عليـهما السلام، خمسـمائة وستون سنة ، وقيل . سبعـمائة سنة ،وقيل : ألف سنة .

وبين موسى وعيسى عليـهما السلام ألف وتسعمـائة وخمس وعشرين سنة . وقيل ألفا سنة ، أى أنـه كان فيما بين هذين النبـيين وبينه : فترة طويلة من الزمن .

«أفـلا تعقلون» ، بعـد أن قارعـهم بالحـجة جـهلهم بقوله : « أفـلا تعقلون» .

إذ لو كان الأمـر كما يدعـون بأن إبراهيم عليه السلام كـان يهودياً أو نصرانياً : لما أوتى مـوسى عليه السلام التوراة ، ولا عيـسى عليه السلام الإنجيل ، بل كانا يؤمران بتبليغ صحف إبراهيم عليه السلام .

«ها أنتم هؤلاء» ، أي أنتم « حاججتم فيما لكم به علم» فى أمر موسى وعيسى عليهما السلام ، « فلم تحاجون فيما ليس لكم به علمَ» ، وهوأمر إبراهيم عليه السلام ؟

يقول الإمام الألوسى ، فى تعليقه على محاجاة القرآن الكريم لليهود والنصارى :

وأنت تعلم أن هذا لا يشفى الغليل ، إذ لقائل أن يقول :

أى مانع من اتحاد الشريعة مع إنزال هذين الكتابين لغرض آخر غير بيان شريعة جديدة ، على أن الصحف لم تكن مشتملة على الأحكام ، بل كانت أمثالا ومواعظ ، كما جاء فى الحديث ، ثم ماقاله الشهاب : وإن كان وجد التحميل عليه ظاهر، إلا أن صدور تلك الدعوي من أهل الكتاب فى غاية البعد ، لأن القوم لم يكونوا بهذه المثابة من الجهالة وفيهم أحبار اليهود ، ووفد نجران ، وقد ذكر أن الأخيرين كانت لهم شدة فى البحث ، فقد أخرج ابن جرير ، عن عبد الله بن الحرث الزبيدى ، أنه قال :

« سمعت النبى ، ﷺ ، يقول : ليت بينى وبين أهل نجران حجابا ، فلا أراهم ولا يرونى من شدة ما كانوا يمارون النبى ، ﷺ ، اللهم إلا أن يقال :

إن الله تعالى أعمى بصائرهم فى هذه الدعوى، فيكونوا ضحكة لأطفال المؤمنين ، أو أنهم قالوا ذلك علي سبيل التعنت والعناد ، ليغيظ كل منهم صاحبه ، أو ليوهموا بعض المؤمنين ظنا منهم أنهم (لكونهم أميين) ، غير مطلعين على تواريخ الأنبياء السالفين ، فيزلزلهم مثل ذلك ففضحهم الله تعالى .

أو أن القوم فى حد ذاتهم جهلة لا يعلمون، وإن كانوا أهل كتاب – وماذكر ابن الحرث – لا يدل على علمهم كما لا يخفى .

وقيل : إن مراد اليهود بقولهم :

« إن إبراهيم عليـه السلام كان يهـودياً» ، أنه كان مؤمنـاً بموسى عليه السلام ، قبل بعثه على حد مـا يقوله المسلمون فى سائر المرسلين عليهم الصلاة والسلام ، من أنهم كانوا مؤمنين بنبـينا ، ﷺ ، قبل بعثه ، كما يدل عليه تبشيرهم به .

وأن مراد النصارى بقولهم :

(إن إبراهيم كـان نصرانيا نحـو ذلك ، فرد الله تعـالى عليهم بـقوله سبحانه) :

﴿ وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ﴾ .

أى ومن شأن المتـأخر أن يشتمل على أخـبار المتقدم ،لاسيـما فى هذا الأمر المهم . والمفخر العظيم . والمنة الكبرى (أفلا تعـقلون) ، ما فيهما لتعلموا خلوهما عن الإيمان بيـهوديته ونصرانيته اللتين زعمـتموهما. (أ. هـ. ألوس).

(واللهم يعلم) حال إبراهيم وما كـان عليه ، (وأنتم لاتعلمون) ، نفى العلم عنهم فى شأن إبراهيم عليه السلام .

وبعد أن أقـام الله سبحـانه وتعالى الحجـة على اليهـود والنصارى فى دعواهم أن إبراهيم عليه السلام كان يـهوديا أو نصرانيا ، عاد ينفى ذلك عنه بقوله :﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولانصرانيا) ، لا يتبع أى ملة منهما.

﴿ولكن كـان حنيفاً﴾، مـائلا عن العقـائد الزائفـة ، (مسلما) مـنقادا لطاعة الله سبحانه وتعالى ، وموحداً له .

(وما كان من المشركين) .

ويزيد القرآن على كونه لم يكن يهوديا ولانصـرانيا بأنه لم يكن مشركا من عـبدة الأصنام من العـرب الذين أدعـوا أنهم على دينه، أو أراد بهم الصابئة أوالمجوس، أو عبدة الكواكب .

وقيل : أراد بهم اليهود والنصارى لقول اليهود (عزيز ابن الله) .

وقول النصارى : (المسيح ابن الله) !

ثم يحدثنا القرآن الكريم بعد ذلك عن من هم أولى الناس بانتماء سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى ملتهم ودينهم ، فيقرر سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] .

صحف سيدنا إبراهيم عليه السلام

يحدثنا القرآن الكريم عن صحف سيدنا إبراهيم عليه السلام فى سورتين : وهما سورتا النجم والأعلى، بل ويحدثنا القرآن الكريم عن بعض مضمون هذه الصحف ، وهذا لاينافى الحديث النبوى الشريف بأن هذه الصحف كانت أمثالا كلها ، فإن الإمام القرطبى يقول فى تفسيره :

(بأن ذكر القرآن الكريم لبعض مضمون تلك الصحف ، ليس ذكرا لها بلفظها،ولكن بمعناها) :

وعلى هذا نبتدئ بذكر ما جاء فى القرآن الكريم ،ثم نستطرد إلى ما جاء فى الحديث النبوى الشريف .

قال الله تعالى :

«أم لم ينبأ» ، بل ألم يخبر « بما فى صحف موسى» وهى التوراة.

وإبراهيم» وبمافى صحف إبراهيم ، «الذى وفى» وأتم ما أمربه ، أو بالغ فى الوفاء بما عاهد عليه الله تعالى .

« ألا تزر وازره وزر أخرى»، أنه لا تحمل نفس - من شأنها الحمل - حمل نفس أخرى .

(١) سورة آل عمران آية: ٦٨.

والمعنى : ألا يؤاخذ أحد بذنب غيره ليخلص الثانى من عقابه ، «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» بيان لعدم إثـابة الإنسان بعمل غيره، إثر بيان عدم مؤاخذته بذنب غيره .

« وأن سعيه سوف يرى»، أى يعـرض عليه ويكشف له يوم القيامة فى صحيفته وميزانه .

« ثم يجـزاه الجزاء الأوفى » ، أى : يجـزى الإنسـان سعـيه الجـزاء الأوفى .

« وأن إلى ربك المنتهى»، أى: أن انتهاء الخلق ورجوعهم إليه تعالى لا إلى غيره سبحانه .

« وأنه هو أضحك وأبكى»، خلق فعلى الضحك والبكاء .

وقال الطيبى : خلق السرور والحزن ، أو مـا يسر ويحزن من الأعمال الصالحة والطالحة .

« وأنه هو أمات وأحيا» فلا يقدر على الإماتة والإحياء، غيره سبحانه.

« وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » من نوع الإنسان وغيره من أنواع الحيوانات .

« من نطفة إذا تمنى » ، أى تدفق فى الرحم .

« وأن عليه النشأة الأخرى»، أي: الإحيـاء بعد الإماتة، وفاء بوعده، جل وعلا.

« وأنه هوأغنى وأقنى» .

أعطى القنية ، وهو ما يبقى ويدوم من الأمـوال ببقاء نفسه ، أو أصله كالرياض والحيوان والبناء ، وقيل : أغنى وأفقر .

« وأنه هو رب الشعرى» ، نجم مشهور .

« وأنه أهلك عاداً الأولى » ، لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح .

« وثمود فما أبقى » ، أى : فما أبقى عليهم ، أخذاً لهم بذنوبهم .

« وقوم نوح من قبل » ، أهلكهم قبل إهلاك عاد وثمود .

« إنهم كانوا هم أظلم وأطغى» .

أى : كانوا أظلم وأطغى من الفريقين ، عاد وثمود ، فقد دعاهم نبيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلم يستجيبوا لدعوته .

«والمؤتفكة»، قرى قوم لوط، سميت بذلك: لأنها ائتفكت بأهلها، أى: انقلبت .

« أهوى» أى : أسقطها إلى الأرض بعد أن رفعها على جناح جبريل عليه السلام إلى السماء .

وقال المبرد : جعلها تهوى .

« فغشاها ما غشى» ، فيه تهويل للعذاب وتعيميم لما أصابهم منه .

أما فى سورة الأعلى فقد كان الحديث عما فى صحف إبراهيم موجزاً، ولكنه قد يعتبر كمبادئ عامة لما جاء فى تلك الصحف .

يقول الله تعالى فى سورة الأعلى :

« قد أفلح» ، أى نجا من المكروه وظفر بما يرجوه .

« من تزكى» ، أى تطهرمن الشرك بتذكره واتعاظه بالذكرى.

« وذكر اسم ربه»، بلسانه وقلبه .

« فصلى» ، أى أدى الصلوات المفروضة وما أمكن من النوافل .

« بل تؤثرون الحياة الدنيا» ، أى: الرضاء والإطمئنان بها والإعراض عن الآخرة بالكلية .

« والآخرة خيروأبقى» ، والحال أن الآخرة خير وأدوم .

«إن هذا لفى الصحف الأولى» ثابت فيها معناه .

« صحف إبراهيم وموسى » ، وفى إبهامها ووصفها بالقدم ، ثم بيانها وتفسيرها فيه من تفخيم شأنها مالا يخفى .

أما السنة النبوية الشريفة فتذكر أن هذه الصحف - أى صحف إبراهيم كانت أمثالا كلها :

ونكرر هنا ما سبق أن أعلناه من قبل أن ذلك - كما قال القرطبى - لايعنى وجود تعارض بين ما جاء فى هذه الصحف وبين ما جاء فى القرآن الكريم ، لأن القرآن ذكر مضمون هذه الصحف بالمعنى .

أخرج عبد بن حميد ، وابن مردويه ، وابن عساكر ،بسندهم ، عن أبي ذر ، قال : قلت يا رسول الله : كم أنزل الله تعالى من كتاب ؟

قال : مائة كتاب وأربعة كتب :

أنزل على شيث خمسين صحيفة :

وعلى إدريس ثلاثين صحيفة .

وعلى إبراهيم عشر صحائف .

وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف .

وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

قلت : يا رسول الله : فما كانت صحف إبراهيم؟

قال : أمثال كلها :

أيها الملك المتسلط على المبتلى المغرور ، لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لاأردها، ولو كانت من كافر ، وعلى العاقل - ما لم يكن مغلوبا على عقله - أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ويتذكر فيما صنع ، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال .

فإن هذه الساعة عونا لتلك الساعات ، واجتماعاً للقلوب ، وتفريقاً لها ،وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلا على شأنه، حافظاً للسانه .

فإن من حسب كلامه من عمله : أقل الكلام إلافيما يعنيه .

وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث :

مرمة لمعاش : أو تزود لمعاد . أو تلذذ في غير محرم .

قلت : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى؟

قال : كانت عبراً كلها .

عجبت لمن أيقن بالموت : ثم يفرح .

ولمن أيقن بالنار : ثم يضحك .

ولمن يرى الدنيا،وتقلبها بأهلها ، ثم يطمئن إليها .

ولمن أيقن بالحساب : ثم لايعمل .

قلت: يارسول الله، هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم، وموسى ؟

قال: يا أبا ذر ، نعم، قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى، بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى .

(وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن)

يقول الله سبحانه :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1]

---

(١) سورة البقرة: آية ١٢٤ .

اختلف المفسرون فى تفسيرهم لهذه الآية ، نظرا لاختلاف القراء بالنسبة للفظ إبراهيم .

فبعضهم يقرأ إبراهيم بالنصب .

والبعض الآخر يقرؤها بالرفع .

فعلى الوجه الأول : وهو القراءة بالنصب يكون المعنى : أن الله سبحانه وتعالى ، كلفه وأمره بأمور فأتمهن .

واختلف المفسرون فى معنى هذه الكلمات ، التى ابتلاه بها الله سبحانه وتعالى .

فقال طاووس ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما :

أنها العشرة التى من الفطرة : المضمضة ، والاستنشاق ، وقص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والفرق ، ونتف الإبط ،وتقليم الأظافر ، وحلق العانة ،والاستطابة ، والختان .

وقال عكرمة ، رواية عنه أيضاً .

لم يبتل أحد بهذا الدين ، فأقامه كله ، إلا إبراهيم .

ابتلاه الله تعالى بثلاثين خصلة من خصال الإسلام ، عشر منها فى سورة براءة : «التائبون» الخ ، وعشر فى الأحزاب ، « إن المسلمين والمسلمات» الخ ، وعشر فى المؤمنين . و«سأل سائل» إلى «والذين هم على صلاتهم يحافظون» .

وفى رواية الحاكم فى مستدركه أنها ثلاثون، وعد السور الثلاثة الأول، ولم يعد السورة الأخيرة .

فالذى فى براءة : التوبة ، والعبادة ، والحمد، والسياحة ، والركوع ، والسجود ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والحفظ لحدود الله تعالى .والإيمان المستفاد من «وبشرالمؤمنين»، أو من «إن الله اشترى من

المؤمنين» فى الأحزاب ، الإسلام والإيمان ، والقنوت ، والصدق والصبر، والخشوع ، والصيام، والحفظ للفرد بالذكر .

والذى فى المؤمنين : الإيمان والخشوع والأعراض عن اللغو، والزكاة والحفظ للفروج - إلا علي الأزواج أو الإماء ثلاثة - والرعاية للعهد ، والأمانة اثنين ، والمحافظة علي الصلاة .

ويقول آخرون إبتلاه الله بسبعة أشياء بالكوكب والقمرين والختان على الكبر والنار وذبح الولد والهجرة إلى الشام .

وقيل : هى ما تضمنته الآيات التالية من الإمامة وتطهير البيت ووضع قواعده والإسلام .

أما المعنى على القراءة الثانية برفع إبراهيم ونصب ربه ، يكون المعنى عندئذ إن إبراهيم عليه السلام دعا ربه بكلمات مثل :

« رب أرنى كيف تحيى الموتى» .

« واجعل هذا البلد آمنا»، ليرى هل يجيبه ؟

واعترض على أصحاب هذا الرأى بأن ذلك - وإن صح من العبد - لا يصح أو يحسن تعليقه بالرب .

فأجاب أصحاب هذا الرأى : بأن ذلك الوجه غير ظاهر سوى ذكر لفظ «الإبتلاء» ، ويجوز أن يكون ذلك فى مقام الأنس ومقام الخلة غير خفي .

وعلي كل : فنحن مع أصحاب الرأى الأول ، نظراً لاتفاق جمهور المفسرين عليه ،ونظراً لوضوحه وظهوره وتحديده .

ويسيرنا فى هذا الاتجاه نجد أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد نجح فى إتمام تلك الكلمات التى ابتلاه بها الله سبحانه وتعالى .

ومعنى « أتمهن»، أى أتى بهن على الوجه الأتم، وأداهن كما يليق .

وتمضى بنا الآية القرآنية بعد ذلك تقول :

«قال» ، جملة مستأنفة ،وقعت جوابا من سؤال نشأ من الكلام ، فكأنه قيل : فما جوزى على شكره ؟

قيل : قال له ربه :

« إنى جاعلك للناس إماماً»، أى قدوة لمن بعدك .

والإمام اسم لمن يؤتم به ، ولم يبعث بعده نبى إلا كان مأموراً باتباع ملته ،وكان من ذريته كماقال تعالى:

« وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب» .

قال : أى إبراهيم : « ومن ذريتى» أى واجعل من ذريتى أئمة .

« قال لا ينال»، أى قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك،لكن لاينال «عهدى »، أى الذى عهدته إليك بالأمانة «الظالمين»، أى منهم ، لأنهم نفوا أنفسهم عنك فى أبوة الدين .

ففى قوله «لاينال . . . إلخ» ، إجابة خفية لدعوته عليه السلام وعدة إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته بنبل عهد الإمامة، كما قال تعالى:

﴿ وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ﴾ ، وفى ذلك أتم ترغيب فى التخلق بوفائه ، لاسيما الذين دعوا قبلها إلى الوفاء بالعهد .

وأشار إلى أنهم إن شكروا أبقى رفعتهم كما أدام رفعته ، وإن ظلموا لم تنلهم دعوته ، فضربت عليهم الذلة وما معها ، ولا يجزى أحد عنهم شيئا ،ولاهم ينصرون.

بعض صفات خليل الرحمن من القرآن الكريم

والسُّنة النبوية ،وثناء الله عليه

يقول الله تعالى واصفاً سيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾[١] .

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [٢] .

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [٣] .

وهذه الآيات كلها ، ثناء على سيدنا إبراهيم عليه السلام .

والخليل : فعيل بمعنى فاعل ،وهو من الخلة بالضم ، وهى الصداقة والمحبة التى تخللت القلب فصارت خلاله ، وهذا صحيح بالنسبة إلى ما فى قلب إبراهيم من حب الله تعالى .

وأما إطلاقه فى حق الله تعالى : فعلى سبيل المقابلة .

وقيل الخلة أصلها الاستصفاء، وسمى بذلك : لأنه يوالى ويعادى فى الله تعالى .

وخلة الله له : نصره وجعله إماما .

وقيل هو مشتق من الخلة بفتح المعجمة وهى الحاجة ، سمى بذلك لانقطاعه إلى ربه وقصره حاجته عليه .

أما قوله تعالى :

« إن إبراهيم لأواه حليم» .

قال الإمام البخارى فى تفسيره الأواه :

(وقال أبوميسرة : الرحيم بلسان الحبشة) .

---

(١) سورة النحل آية: ١٢٩.

(٢) سورة النساء آية: ١٢٥.

(٣) سورة التوبة آية: ١١٤.

وقال فى ذلك الحافظ بن حجر فى تعليقه عبارة البخارى :

وهذا الأثر وصله وكيع فى تفسيره من طريق أبى إسحق عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل ، قال :

الأواه : الرحيم بلسان الحبشة .

وروى ابن أبى حاتم من طريق ابن مسعود باسناد حسن قال :الأواه : الرحيم ، ولم يقل بلسان الحبشة .

ومن طريق عبد الله بن شداد أحد كبار التابعين قال :

قال رجل : يا رسول الله ، ما الأواه

قال : «الخاشع المتضرع فى الدعاء» .

ومن طريق ابن عباس قال :

الأواه : الموقن .

ومم طريق مجاهد قال : الأواه : الحفيظ ، الرجل يذنب سرا ثم يتوب منه سرا .

ومن وجه آخر ، عن مجاهد قال : الأواه : المنيب الفقيه الموقن .

ومن طريق الشعبى، قال : الأواه المسبح .

ومن طريق كعب الأحبار ، فى قوله أواه ، قال :

كان إذا ذكر النار قال : أواه من عذاب الله .

ومن طريق أبي ذر قال : « كان رجل يطوف بالبيت ويقول فى دعائة أوه أوه ، فقال النبى ﷺ :

(إنه لأواه) ، رجاله ثقات ، إلا أن فيه رجلا مبهما

وذكر أبوعبيدة أنه فعلا من التأوه ، ومعناه متضرع شفقاً ولزوما لطاعة ربه . أ. هـ .

وقوله «أمة» ، أى قدوة إماما مهتدياً داعياً إلى الخير، يقتدى به فيه ، «قانتاً لله» ، أى خاشعً له فى جميع حالاته وحركاته وسكناته .

«حنيفاً» ، أى مخلصاً علي بصيرة .

وقد عد الإمام ابن كثير أغلب الآيات القرآنية التي سبق أن ذكرنها فى موضوع بحثنا واعتبرها من صفاته .

ونحن نرى ألا داعى لتكرار ذلك فى بحثنا ، حيث أننا سبق أن شرحناها قبل ذلك تحت عناوين مختلفة .

أما السنة النبوية فقد ذكر فيها الكثير من فضائل سيدنا إبراهيم عليه السلام ، نذكر الآن بعضاً منها :

عن الإمام البخارى بسنده ، أن رسول الله ﷺ ، قال : إنكم تحشرون حفاة عراة غرلا ، ثم قرأ : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ ، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإن أناساً من أصحابى يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابى فيقول :

إنهم لم يزالوا مرتدين علي أعقابهم منذ فارقتهم ، فأقول : كما قال العبد الصالح -وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم- إلى قوله -الحكيم- .

عن الإمام البخارى بسنده ، أن رسول الله ﷺ قال :

يلقي إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ،فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى؟ فيقول أبوه : اليوم لاأعصيك .

فيقول إبراهيم : يا رب أنت وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد .

فيقول الله تعالى : إنى حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال يا إبراهيم : ما تحت رجليك ؟

فينظرفإذا هو بذبح ملتطخ ، فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى فى النار.

وعن الإمام البخارى بسنده : أن النبي ﷺ لما رأى الصور فى البيت لم يدخل حتي أمر بها فمحيت ، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام ، فقال : قاتلهم الله ،والله إن استقسما بالأزلام قط . أ. هـ .

وعن الإمام البخارى بسنده ، قال : قيل : يا رسول الله ، من أكرم الناس ؟

قال : أتقاهم .

فقالوا : ليس عن هذا نسألك .

قال : فيوسف نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن خليل الله ؟

قالوا : ليس عن هذا نسألك .

قال : فعن معادن العرب تسألون ؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا . أ. هـ .

وعن الإمام البخارى بسنده ، قال رسول الله ﷺ : (أتاني الليلة آتيان، فأتينا على رجل طويلا لاأكاد أرى رأسه طولا ،وإنه إبراهيم صلى الله عليه وسلم .

وعن الإمام البخارى ، عن مجاهد ، أنه سمع ابن عباس رضى الله عنها ، وذكر له الدجال بين عينيه مكتوب كافر أو : ك ف ر ، فقال : لم أسمعه ،ولكنه قال :

أما إبراهيم؟

فانظروا إلي صاحبكم ،وأما موسى : فجعد آدم على جمل أحمر مخطوم يخلبه كأنى أنظر إليه انحدر فى الوادى .

وعن الإمام البخارى بسنده ، قال : قال رسول الله ﷺ : اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم .

(٧)

وروى أبو يعلى، من طريق علي بن رباح قال :

أمر إبراهيم بالختان فاختتن بقدوم ، فاشتد عليه ، فأوحى الله إليه :

أن عجلت قبل أن نأمرك بآلته .

فقال : يارب كرهت أن أوخر أمرك .

وعن الإمام البخارى بسنده : أنهم قالوا يارسول الله :، كيف نصلي عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : قولوا :

(اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت علي آل إبرهيم، وبارك علي محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت علي آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد) أ.هـ.

وعن الإمام البخارى بسندة - فيما رواه ابن عباس رضى الله عنهما - قال:

كان النبى ﷺ ، يعوذ الحسن والحسين ، ويقول :

(إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق) :

(أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ،ومن كل عين لامة).

وعن الإمام مسلم بسنده، فى حديث أنس: أن رجلا قال للنبي ﷺ : ياخير البرية .

قال : ذاك إبراهيم .

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ :

وإن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، خليل الرحمن ، تفرد به أحمد .

ثم مما يدل علي أن إبراهيم أفضل من موسى ، الحديث الذى قال فيه:

وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم.

رواه مسلم من حديث أبي بن كعب رضى الله عنه .

وروى الإمام أحمد: حـدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثنـى مغيرة ابن النعمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ :

يحشر الناس عراة غـرلا ، فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام ، ثم قرأ : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ .

وعن الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن سنان القطان الواسطى، ومحمد بن موسى القطان قالا : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حماد بن سلمة، عن سماك، عن عكرمة ، عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ

إن فى الجنة قصراً - أحسبه قال من لؤلوة - ليس فيه فصم ولاوهى ، أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا .

قال الإمام أحمد : حـدثنا يونس وحجين قالا : حدثنا الليث عن أبى الزبير ، عن جابر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال :

عرض عليّ الأنبـياء ، فإذا مـوسى ضرب من الرجال كـأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بـن مريم ، فإذا أقرب من رأيت شبـها عروة بن مسعود ،ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية.

وقال أحمد : حدثنا أسود بن عامـر، حدثنا إسرائيل ، عن عثمان - يعنى ابن المغيرة - عـن مجاهد ، عن ابن عباس قـال : قال رسول الله ﷺ

رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم .

فأما عيسى : فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسى فآدم جسيم ، قالوا له : فإبراهيم ؟ قال : (انظروا إلى صاحبكم) يعني نفسه .

والله الموفق للصواب ،وهو الهادى إلى صراطه المستقيم ؛ وصلى الله علي سيدنا محمد النبى الأمى ،وعلى آله وصحبه أجمعين .

أهم المراجع

القرآن الكريم
تفسير الألوسى
تفسير الزمخشرى
تفسير الفخر الرازى
تفسير الطبرى
تفسير ابن كثير
تفسير القرطبى
صحيح مسلم
فتح البارى للحافظ ابن حجر
قصص الأنبياء للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير
النبوة والأنبياء: دكتور محمد على الصابونى
نظرات تحليلية فى القصة القرآنية: الأستاذ محمد المجذوب
قصص الأنبياء: الشيخ عبد الوهاب النجار
حياة إبراهيم: الأستاذ محمود شلبى
زاد المعاد فى هدى خير العباد: لابن القيم الجوزية
إبراهيم أبو الأنبياء: الأستاذ عباس محمود العقاد
القسطاس المستقيم: للإمام أبى حامد الغزالى
إبراهيم أبو الأنبياء: الأستاذ محمد حسن عبد الحميد
موقف القرآن من عصمة الأنبياء: الأستاذ شاكر محمود أحمد
رسالة فى عصمة الأنبياء: الأستاذ محمد يونس عبد الرحمن
رسالة فى عصمة الأنبياء: الأستاذ أحمد أحمد إبراهيم

محتويات الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٧
اسم سيدنا إبراهيم عليه السلام ونسبه	٩
مولده ونشأته	١١
دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام لأبيه	١٣
دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه (١)	١٥
رد شبهة حديثة حول سيدنا إبراهيم عليه السلام	٢١
تفسير لآيات	٢٧
دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه (٢)	٢٩
المحاكمة	٣٤
وضع ابراهيم عليه السلام فى النار	٣٥
رد شبهة أخرى حول سيدنا إبراهيم عليه السلام	٣٦
مناظرة سيدنا إبراهيم عليه السلام للنمروذ	٣٩
نحن أحق بالشك من إبراهيم	٤١
السيدة سارة	٤٤
السيدة هاجر وسيدنا إبراهيم عليهما السلام	٤٨
قصة الذبيح	٥٥
مولد سيدنا إسحاق عليه السلام	٦٣
رد شبهة حول رحلة سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز	٦٨
بناء الكعبة	٧٣
دين سيدنا إبراهيم عليه السلام	٨١
صحف سيدنا إبراهيم عليه السلام	٨٦
وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن	٩٠
بعض صفات خليل الرحمن من القرآن الكريم والسنة النبوية وثناء الله عليه	٩٤
أهم المراجع	١٠٠
محتويات الكتاب	١٠١

رقم الإيداع : ٤٧٣٢ / ٢٠٠٤ م
الترقيم الدولي .I.S.B.N
977-5260-37-x